

روايات جائزة نوبل

10

هيرمان هسه

أحلام الناي



محمّد فؤاد عطا الله

ترجمة

الدار المصرية اللبنانية

لوائح جائزة نسور

10

روايات جائزة نوبل

سلسلة تصدرها

الدار المصرية اللبنانية

المدير العام : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحى العشرى

الإعداد والصياغة : محمد فتحى.

١٦ شارع عبد الحالى ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - بريقياً : دار شادو

ص.ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٧/٥٨٢٢

الترقيم الدولى : 2 - 357 - 270 - 977

جميع حقوق الترجمة والطبع والنشر محفوظة للناسخ

الطبعة الأولى : محرم ١٤١٨ هـ - مايو ١٩٩٧ م .

أحلام الناي

FLOTE TRAUME

هيرمان هسه

نوبل عام / 1946

محمد فؤاد عطا الله

ترجمة

السلام النبوي



احلام الناي

أبى قال لى وهو
يناولنى نايا صغيرا
من العاج :

«إليك هذا .. خذه ولا تنس والدك العجوز عندما تسرى عن الناس بعزفك
فى بلاد غريبة .. فلقد حان الوقت لكى تشاهد العالم وتكتسب المعرفة .
فأنا طلبت صنع هذا الناي لك ؛ لأنك لاتحب عملا سواه ، ولا يطيب لك
إلا أن تغنى دائما ، ولكن تأكد دائما أنك تختار الأغانى المشرقة المرحه ، وإلا
فستكون الهبة التى أودعها الله فىك مدعاة للأسف . » كان أبى العزيز
لا يفهم فى الموسيقى إلا قليلا ، وكان من رجال العلم يعتقد أن كل ما ينبغى أن
أفعله هو أن أنفخ فى الناي الصغير اللطيف ، ولا يزيد الأمر على ذلك . ولم
أكن أريد أن أبدد وهمه ؛ ولهذا شكرته ووضعت الناي فى جيبى ، وشرعت
فى الرحيل .

وكان وادينا مألوفاً لى حتى طاحونة المزرعة الكبيرة ، وهكذا كان العالم
بالنسبة لى يبدأ بعدها . وقد سرنى هكذا كثيرا . واستقرت نحلّة أجهدتها
الطواف على كمنى ، فأخذتها معى حتى يكون لدى فى أول مكان أستريح
فيه رسول أستطيع أن أرسله إلى البيت حاملا تحياتى .

ورافقتنى الغابات والمروج وأنا سائر فى طريقي ، وكان النهر يجرى مرحا

إلى جانبى ، ورأيت أن العالم لا يختلف إلا قليلا عن بيتى . وكانت الأشجار والأزهار ، وسنابل القمح ، وأجام البندق المتشابكة تتحدث إلى ، فكنت أردد معها أغانيها ، فتفقه عنى كما كانت تفقه فى بيتنا ، إلا أن الغناء أيقظ نحلتي ، فزحفت متمهلة حتى بلغت كتفى ، ثم طارت فى خط مستقيم ، وانطلقت كالسهم عائدة صوب البيت .

وهنا خرجت من الغابة فتاة صغيرة تحمل سلة علي ذراعها ، وتضع على رأسها الأشقر قبة عريضة من القش لتقيها من الشمس .

قلت لها : « سبحان الله ! اين تذهيين ؟ » فردت على قائلة وهى تسير إلى جوارى : « إننى أحمل لرجال الحصاد غذاءهم . وأنت ، أين تذهب اليوم ؟ »

« أنا ذاهب إلى العالم ، كما أرسلنى أبى . فهو يعتقد أن من واجبى تقديم حفلات على الناي ، ولكننى لا أدرى حقا كيف يكون ذلك ، إذ ينبغى لى أن أتعلم أولا . »

« هذا حسن . . ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله حقا ؟ على كل إنسان أن يكون قادراً على فعل شىء ، أيا كان . »

- لاشىء بوجه خاص . كل ما أستطيعه هو أن أنشد الأغانى .

- « وأى نوع من الأغانى هذا الذى تنشده ؟ »

- كل أنواع الأغانى ، للصباح والمساء ، ولكل الأشجار والحيوانات ، والأزهار . الآن مثلاً ، أستطيع أن أغنى أغنية جميلة عن فتاة صغيرة خرجت من الغابات وتحمل لرجال الحصاد غذاءهم .

- « أتستطيع ذلك حقاً ؟ إذن ، هيا ، أنشدها على الفور ! »

- « أجل ، ولكن ما اسمك ؟ »

- « بريجيت . » أنشدت أغنية عن « بريجيت » الفائتة بقبعتها المصنوعة من القش ، وبما تحمله في سلتها ، وكيف أن الأزهار جميعاً تحملق فيها ، وزهرة اللبلاب الزرقاء فوق سور الحديقة تحاول بلوغها ، وكل تلك التفاصيل .

استمعت جيداً للأغنية ، ثم قالت : إنها جيدة . فلما أخبرتها بأنني جائع ، رفعت غطاء السلة ، وأعطتني قطعة من الخبز ، فقضمت منها كسرة ، ثم واصلت سيرى مسرعاً ، فقالت : « لا ينبغي أن تجرى أثناء الأكل ، فليأت أحدهما بعد الآخر . » وهكذا جلسنا معاً على العشب ، وأكلت خبزي ، فيما طوقت ركبتها بيديها السمراروين ، وجعلت تنظر إلى .

سألتني بعد أن فرغت من أغنيتي : « ألن تغني شيئاً آخر من أجلى ؟ »

- « طبعاً ، سأفعل . ترى ماذا يكون ؟ » -

- « عن فتاة هجرها حبيبها ، وهي حزينة . »

- « كلا ، لا أستطيع أن أغني هذا . فلا أدري ماسيكون عليه هذا الشعور ، وعلى كل حال لا ينبغي للمرء أن يكون حزيناً إلى هذا الحد . وما ينبغي لي إلا أن أغني الأغاني المبهجة المرحّة ، كما قال لي أبي . سأغني لك عن العصفور أو عن الفراشة . »

فسألتني : « إذن ، أنت لاتعرف شيئاً على الإطلاق عن الحب ؟ »

- « عن الحب ؟ بلى ، أعرف عنه أنه أجمل الأشياء جميعاً . »

وبدأت فوراً ، فغنيت عن أشعة الشمس التي وقعت في غرام زهور

الخشخاش الحمراء ، وكيف أخذت تداعبهن وهى فى أوج السرور . وعن عصفورة الحسون عندما تنتظر زوجها ، فإذا جاء طارت بعيداً وتظاهرت بأنها مذعورة . وواصلت الغناء عن الفتاة ذات العينين العسليتين ، وعن الشاب الذى اعترض طريقها ، وأخذ فى الغناء فكافأته بقطعة من الخبز ، يبدو أنه الآن لا يريد مزيداً من الخبز ، وإنما يريد قبلة من الفتاة ، ويتمنى أن ينظر فى عينيها العسليتين ، وسيمضى فى الغناء ولن يتوقف حتى تبتسم وتغلق فمه بشفتيها .

فانحنى بريحييت ، وأغلقت فمى بشفتيها ، وأغمضت عينيها ، ثم فتحتها ثانية ، فنظرت فى النجمتين العسليتين الذهبيتين ، اللتين أبصرت فيهما نفسى وبضعة من زهور الروض البيضاء منعكسة فيهما .

قلت : « العالم فى غاية الروعة ! وقد كان أبى على حق ، تماماً . والآن سأساعدك على حل سلتك ، وسأخذها معاً إلى أهلِكَ . »

وتناولت سلتها ، وسرنا معاً ، وقد تناغمت خطواتها مع خطواتى ، وانسجم مرحها مع مرحى ، وتهاست الغابة فى لطف وانتعاش من أعالي الجبل . لم أتجول فى حياتى بمثل هذا الفرح ، واستأنفت الغناء فرحاً حتى لم أجد بداً من التوقف نتيجة للقيض الغامر من الأغانى الذى تدفق على : من السهل والجبل ، من العشب والنهر ، ومن النجم والشجر ، ومن الهمسات والحكايات جميعاً .

ثم وقفت أؤمن الفكر : لو استطعت فى وقت واحد أن أفهم هذه الآلاف من الأغانى وأن أشدها للعالم ، عن العشب والأزهار والناس والسحب ، عن كل شئ ، عن الغابات المورقة ، وأشجار الصنوبر ، وعن

الحيوانات جميعاً ، وكذلك عن البحار البعيدة ، والجبال ، والنجوم ، والقمر ، وإذا تردد هذا كله في داخلي ، وغنى في الحال ، فسأكون قادراً على كل شيء ، وستحتل كل أغنية جديدة مكانها في السماء بوصفها نجمة .

ولكن ، بينما كنت أفكر في هذا كله ، هادئاً تمام الهدوء من الداخل ، تملؤني الدهشة لأن مثل هذا الخاطر لم يطرأ على عقلي من قبل . توقفت «بريحييت» ، وأرجعتني إلى الوراء بأن شددت السلة من يدي .

قالت : « الآن ، ينبغي أن أصعد من هذا الطريق ، وقومى هناك يعملون في الحقل ، وأنت ، إلى أين تمضى ؟ هل ستأتى معي ؟ »

- « كلا ، لا أستطيع أن أذهب معك ، ينبغي أن أخرج إلى العالم . شكرًا جميلًا على الخبز يابريحييت ، وعلى القبلية . سأفكر فيك . » فتناولت مني سلة الغذاء وأطبقت بعينها على مرة أخرى في ظلها العسلي ، وتشبثت شفتاها بشفتي ، وكانت قبلتها من العذوبة والحنان بحيث حزنت من فرط السعادة ، ثم ودعتها مسرعاً ، وهرولت منحدرًا في طريقي .

وارتقت الفتاة سفح الجبل على مهل ، وتحت الأغصان المتشابكة لأشجار الخوخ عند حافة الغابة توقفت ، وشخصت ببصرها في أثرى ، وعندما أشرت إليها ، ملوحاً بقبعتي فوق رأسي ، أومأت مرة أخرى ، ثم لم تلبث أن اختفت في ظل أشجار الخوخ الساكنة كأنها مرسومة في لوحة .

أما أنا ، فقد مضيت في طريقي مستغرقاً في أفكارى ، حتى إذا انعطفت بى الطريق عند ركن ، انتصبت أمامى هناك طاحونة . وإلى جانبها كان يطفو زورق على صفحة النهر ، يجلس فيه رجل متوحد يبدو عليه أنه كان في انتظاري ، ذلك أننى ماكدت ألس قبعتى ، وأهبط من الشاطئ ، حتى

تحرك الزورق من فوره وانساب على صفحة الماء . وكنت أجلس وسط الزورق ، على حين كان الرجل يجلس فى المؤخرة عند الدفة . ولما سألته : إلى أين نقصد ؟ رفع رأسه ، وسدد إلى عينيّن رماديتين عليهما غشاوة .

قال بصوت منخفض : « حيثما تشاء . مع التيار إلى المحيط ، أو إلى المدن العظيمة . . لك الخيار . إنها كلها ملكى .

- « كلها ملكك ؟ إذن ، فأنت الملك ؟ »

قال : « ربما . . وأنت شاعر ، على ما يبدو . . إذن أنشدلى أغنية أثناء سفرنا هذا . »

فاستجمعت شتات نفسى . كان الخوف يملؤنى من ذلك الرجل المهيّب ولأن زورقنا كان ينساب بسرعة فائقة وفى هدوء على صفحة النهر . غنّيت أغنية عن النهر الذى يحمل القوارب ، ويعكس الشمس ، ويرتطم بالضفاف الصخرية ، ويشعر بالسعادة حين يتم تجولاته .

وظل وجه الرجل خالياً من كل تعبير . وعندما توقفت عن الغناء ، أطرق صامتاً كالحالم . وفجأة ، وأنا فى دهشة شديدة ، جعل هو نفسه يغنى ، وكانت أغنيته عن النهر وعن رحلة النهر عبر الوديان ، وكانت أغنيته أجمل وأقوى كثيراً من أغنيتى ، إلا أن كل مافيهما كان مختلفاً كل الاختلاف .

وفى أثناء أغنيته عن النهر ، اندفع النهر من التلال كالمقاتل المجتاح ، قائماً شرساً ، وبأنياب بارزة قاتل الطواحين التى تقيد حركته ، والجسور ذات الأقواس ، وكأنه يمقت كل زورق عليه أن يحمله ، وفى أمواجه وأعشابه الخضراء الطويلة كان يهدد جثث الغرقى وهو يبتسم .

لم يبعث هذا شيئاً من السرور إلى نفسى ، ومع ذلك كان صوته جميلاً
غامضاً إلى درجة أصبحت معها مضطرباً تماماً ، فأخلدت إلى الصمت ،
متلفعاً بحزنى ، فإذا كان هذا الذى يغنيه ذلك المنشد العجوز البارص بصوته
المكتوم حقيقياً وصادقاً ، إذن كانت أغنياى جميعاً مجرد هراء وعبث أطفال .
ولم يكن العالم فى قرارته خيراً مشرقاً كالرب ، بل قائم بائس ، وشرير محزن ،
وعندما ينبعث حفيف الغابات ، فليس ذلك من الفرح وإنما من العذاب .

وواصلنا رحلتنا ، على حين أخذت الظلال تطول وتطول : وكلما شرعت
فى الغناء ، بدا صوتى أقل ثقة بنفسه ، وازداد خفوئاً ، وفى كل مرة كان
المنشد العجوز يبينى بأغنية تجعل الكون أشد ألغازاً وحزناً ، فأزداد أنا أيضاً
كمداً وأسى .

تألمت روحى ، وانتابتنى الحسرة ؛ لأننى لم أمكث على الشاطئ مع
الأزهار ومع « بريجيت » الجميلة . ولكى أعزى نفسى مع اقتراب الغروب ،
شرعت فى الغناء مرة أخرى بصوت مرتفع ، وغنيت وسط توهج المساء
الأحمر أغنية بريجيت وقبلاتها .

وجاء الغسق ، فالتزمت الصمت ، وأخذ الرجل الممسك بالدفة ،
يغنى ، وكان هو أيضاً يغنى عن الحب ومسررات الحب ، وعن العيون
العسلية والعيون الزرق ، وعن الشفاه الحمر الندية ، وكان غناؤه الخالى من
الانفعال الذى يتردد فوق التيار المعتم شجياً مؤثراً ، غير أن الحب أصبح
أيضاً فى أغنيته قائماً مربعاً ، وسراً قاتلاً يسعى الناس إلى البحث عن حقيقته ،
وقد أصابهم مس من الجنون وسالت دماؤهم من التعاسة وهم يعذبون
ويقتلون بعضهم بعضاً .

وأصغيت بكل سمعى ، فاستولى علىَّ الإرهاق الحيرة ، وكأئننى قطعت
رحلتى فى أعوام طوال ، ولم أسافر إلا فى الأسى والبؤس . وأحسست بتيار
دائم من الحزن والقلق يزحف نحوى من ذلك الرجل الغريب ، وهو يتسلل
إلى قلبى .

ولزمت الصمت فى نهاية الأمر بمرارة : « إذن ، فالحياة ليست هى
الأسمى والأفضل بل الموت . . فأنا أضرع إليك أيها الملك الحزين ، أن
تنشد لى أغنية عن الموت ! »

وأخذ الرجل الجالس عند الدفة يغنى للموت ، وكان غناؤه أجمل من أى
شئ سمعته من قبل ، غير أن الموت لم يكن هو أيضا أسمى الأشياء
وأفضلها ، وحتى فى الموت لم تكن هناك راحة . كان الموت هو الحياة ،
وكانت الحياة هى الموت ، فقد أوصد عليهما معا فى صراع عاشق أبدى
مجنون ، وكانت هذه هى الكلمة النهائية ، ومعنى الكون ، ثم بزغ نور باهر ،
وإشعاع ساطع يستطيع أن يجمد كل بؤس ، وجاء ظل آخر عكر صفو
السرور والجمال وشملهما فى ظلام قائم . ولكن من خلال هذه الظلمات
خرج الفرح أشد سطوعاً ولعناً ، وتوهج الحب توهجاً أعمق وسط هذا
الليل البهيم .

أصغيت ، فى سكون تام ، ولم تعد لكدىَّ إرادة سوى إرادة هذا الرجل
الغريب ، واستقرت نظرتة هادئة علىَّ ، يشوبها شئ من العطف الحزين
المتسم بالود ، وكانت عيناه الرماديتان مفعمتين بالأسى ، وبما فى الكون من
جمال . وابتسم لى ، فتشجعت وتوسلت إليه مدفوعاً بتعاستى : « دعنا نفرغ
من أمرك ! إننى خائف هنا فى الظلام ، وأرجو أن أعود حيث أستطيع أن
أجد بريحييت ، أو إلى البيت حيث أجد والدى . »

فنهض الرجل ، وأشار إلى الليل ، فسطع المصباح على وجهه النحيل
الممتلئ عزمًا : « لاسبيل إلى الرجوع » قال هذه العبارة في رزانة ولطف معاً
«علي المرء أن يواصل السير إلى الأمام إذا كان ينبغي سَبْرَ أغوار العالم ، ولقد
حصلت على خير ما يحصل عليه المرء من الفتاة ذات العينين العسليتين ،
وكلما ابتعدت عنها ، كان ذلك خيراً لك ، ولكن ، لأبأس ، أبحر حيثما
تشاء ، وسأنتحلي عن مكاني لك لتمسك بالدفة ! »

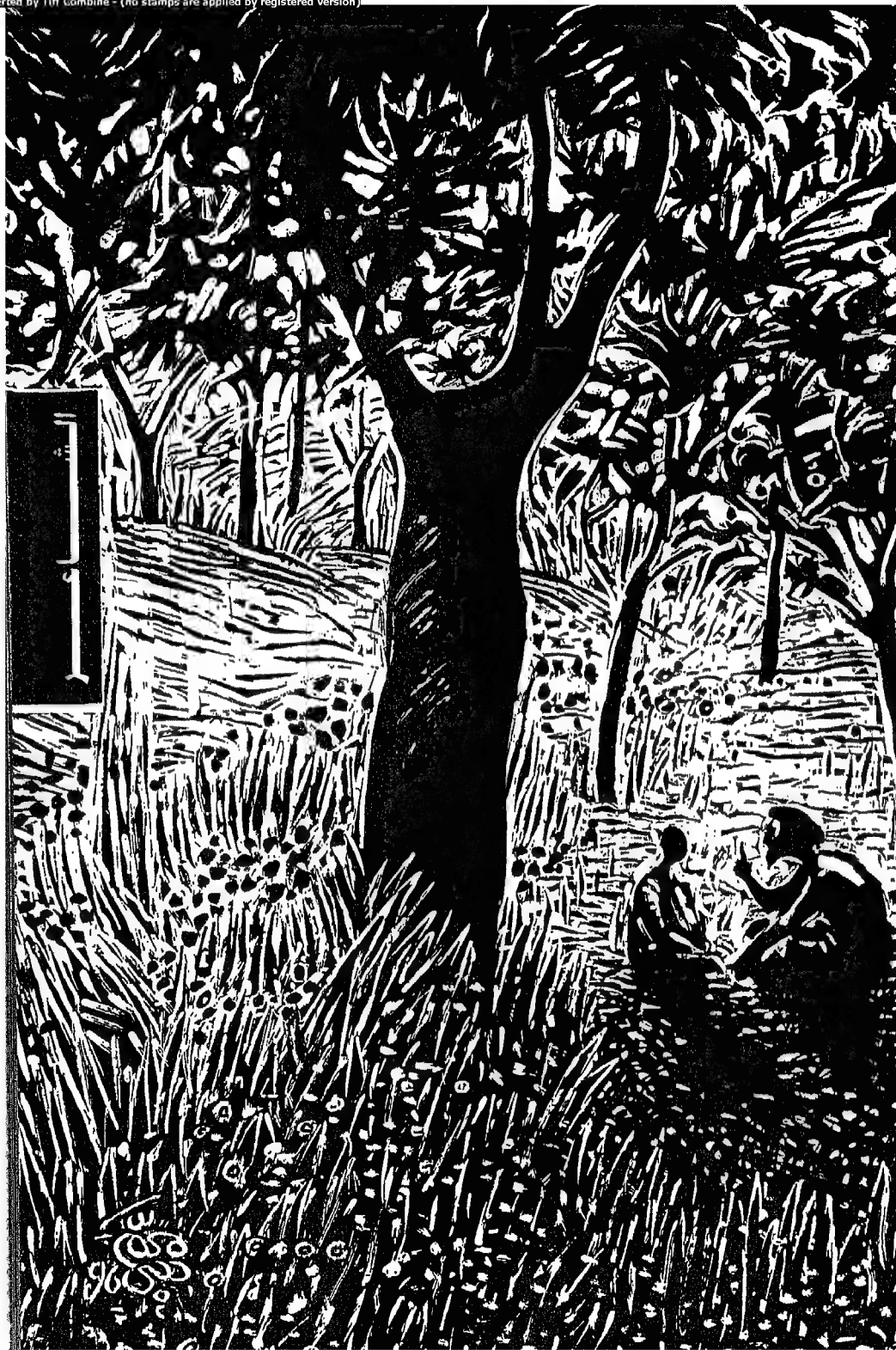
كنت يائساً يائساً مميّتاً ، ومع ذلك رأيت أنه على حق ، وفكرت في
«بريجيت» وفي بيتي وفي كل شيء كان مشرقاً ، أمتلكه بين يديّ ، فإذا هو
الآن ضائع تماماً . . فكرت في هذا كله يملؤني الحنين ، ولكن على الآن أن
أحتل مكان الرجل ، وأن أدير الدفة ، هذا أمر لامناص منه .

بعدها ، نهضت في صمت ، وخطوت خلال الزورق متجهاً صوب
مقعد الربان ، وخطا الرجل نحوى صامتاً ، وفي أثناء عبورنا تفرس الرجل
في وجهي وناولني المصباح .

ولكن ، عندما جلست إلى الدفة ، ووضعت المصباح بجانبى ، كنت
وحيداً في القارب . وأدركت - وقد أخذتني قشعريرة عميقة - أن الرجل قد
اختفى ، ومع ذلك لم تساورني الدهشة ، إذ كنت أتوقع في قرارة نفسى شيئاً
كهذا ، وخيل لي أن يوم التجوال الجميل ، وبريجيت ، وأبى ووطنى ، لم
يكن هذا كله سوى أحلام ، وأننى عجوز حزين ، رحلت فعلاً ، وكنت
راحلاً دائماً وأبداً على صفحة هذا النهر الليلي .

وكنت أعلم أنه لا ينبغي لى أن أنادى على الرجل العجوز ، وهبطت على
معرفة الحقيقة كأنها رعدة .

ولكى أكون على يقين مما ارتبت فيه فعلا ملت على الماء ، ورفعت
المصباح ومن خلال مرآة المياه السوداء ، حملت إلى وجه ذو ملامح قاسية
مهيبة وعينين رماديتين ، وجه عجوز يعرفنى . . كان وجهى أنا .
ولما لم يكن ثمة سبيل للعودة ، فقد واصلت وحلتى إلى الأمام فوق المياه
المظلمة ، متوغلا في قلب الليل .



الصينى «هان
فوك» كان منذ
صباه الباكر مولعاً

الشاعر

ولعاً شديداً بمعرفة كل مايتعلق بفن الشعر ، وأراد أن يصل بنفسه إلى
الكمال فى كل مايتصل به ، وكان لايزال يعيش فى المدينة التى هى مسقط
رأسه والتى تقع على « البحر الأصفر » ، وهناك عقد خطبته - بمحض
اختياره وبمساعدة والديه اللذين كانا يحبانه حباً مفعماً بالحنان - على فتاة
من أسرة طيبة ، أما لينة الزفاف ، فقد تقرر أن يكون إعلانها فى يوم من أيام
القال الحسن . وكان « هان فوك » حينذاك فى العشرين من عمره ، شاباً
وسيماً ، متواضعاً ، مهذباً فى سلوكه ، نال قسطاً من العلوم ، وعلى الرغم
من صغر منه فقد كان معروفاً فى الأوساط الأدبية فى الحى الذى يسكنه -
بفضل عدد من قصائده الجيدة . ومع أنه لم يكن غنياً بالمعنى الدقيق ، فإنه
كان يتوقع أن تكفل له موارده حياة مريحة ، وهذه الموارد سوف تزداد بالدوطة
التي تقدمها عروسه . ولما كانت عروسه ذات جمال وفضيلة هى أيضاً ، فقد
كان يبدو أنه لاينقصه شيء لكى يستمتع بسعادة الشباب ، إلا أنه لم يكن
راضياً تمام الرضا ؛ ذلك أن قلبه كان عامراً بالطموح إلى أن يصبح شاعراً .

وذات مساء ، عندما كان الناس يحتفلون بمهرجان المصاييح على ضفة

النهر ، تصادف أن كان « هان فوك » يتجول وحيداً على الضفة المقابلة ، وقد أسند جسمه على جذع شجرة معلق فوق الماء . وعلى صفحة النهر شاهد آلاف الأضواء المنعكسة ، تطفو وترتجف ، ورأى الرجال والنساء والفتيات فى القوارب والمراكب الكبيرة ، يحيون بعضهم بعضاً ، ويتألقون كالأزهار الفاتنة فى ثيابهم الاحتفالية ، وأنصت إلى غناء الفتيات ودندنة القيثارة ، وإلى الألحان العذبة التى يطلقها عازفو الناي ، وفوق هذا كله ، رأى الليل المائل إلى الزرقة مقوساً كأنه قبة معبد . وخفق قلب الشاب خفقاناً شديداً وهو يشاهد هذه الفتنة كلها ، ويدرك أنه مراقب وحيد يسعى إلى تحقيق أمنيته ، ولكنه ، بقدر ما كان يشاق إلى عبور النهر والمشاركة فى الاحتفال والتمتع بصحبة عروسه المقبلة وأصدقائه ، كان شوقه إلى أن يستوعب هذا كله بوصفه شاهداً نافذ البصيرة ونظمه فى قصيدة واحدة كاملة - كان هذا الشوق أعمق كثيراً : كان يريد أن يتحدث فى قصيدته عن زرقة الليل ، وتلاعب الضياء على صفحة الماء ، وعن ابتهاج المحتفلين ، وحنين المشاهد الصامت الذى يستند إلى جذع الشجرة على شاطئ النهر . وأدرك أنه فى المهرجانات جميعاً وفى مسرات الأرض كلها ، لن يشعر بالراحة التامة أو الطمأنينة الكاملة فى قلبه ، وحتى وسط الأجواء التى تموج بالحياة ، سيبقى وحيداً دائماً ، وسيظل إلى حد ما مراقباً ، أجنبياً ، وأحس أن روحه التى لاتشبه أرواح الآخرين ، صيغت بحيث ينبغى أن يكون وحيداً ؛ لكى يجمع فى تجربته بين جمال هذه الدنيا وبين الأشواق الخفية التى ينعم بها فؤاده الغريب . وفى عمق الحزن أخذ يتأمل ، وكانت نتيجة أفكاره أن السعادة الحقة والرضا العميق لايمكن أن يظفر بهما إلا إذا نجح مصادفة فى أن يعكس هذا العالم انعكاساً كاملاً فى قصائده بحيث يستطيع أن يمتلك فى هذه الصور المنعكسة ماهية العالم ، نقية أبدية .

ولا يدري « هان فوك » أكان مستيقظاً أم نائماً عندما سمع صوت حفيف وأبصر شخصاً غريباً يقف عند جذع الشجرة ، كان رجلاً عجوزاً مهيب الطلعة ، يرتدى ثوباً بنفسجياً ، فنهض « هان فوك » من جلسته ، وحيّا الرجل الغريب التحية اللائقة بالشيخ الأجلاء ، فابتسم الغريب ، وأنشد بضعة أبيات عبرت عن كل ما أحس به الشاب منذ لحظة أكمل تعبير وأجمله ، وجاءت متفقة مع القواعد التي وضعها الشعراء الكبار ، بحيث توقف قلب الشاب عن الخفقان من فرط الدهول .

فصاح وهو ينحنى انحناء عميقة : « من تكون ؟ أنت الذى تستطيع أن تنفذ إلى روحى ، وأن تنشئ هذه الأشعار التى أراها أجمل من كل ماسمعته من أساتذتى ! »

فابتسم الغريب ثانية ابتسامة شخص خُلق ليكون كاملاً ، وقال : « إذا أردت أن تكون شاعراً ، فتعال عندى ، وستجد كوخى إلى جانب منبع «النهر الكبير» عند الجبال الشمالية الغربية . إنهم هناك يطلقون على اسم «أستاذ الكلمة الكاملة» .

خطا الرجل العجوز إلى ظل الشجرة النحيل واختفى فى الحال ، وأخذ «هان فوك» يبحث عنه عبثاً ، فلما لم يجد له أثراً ، قرر أن الأمر كله لايعدو أن يكون حلماً راوده ، بسبب الإجهاد . فهرع عبر القوارب ، وانضم إلى المهرجان ، ولكنه وسط أحاديث القوم وألحان النيات ، ظل صوت الغريب الغامض يرن فى مسمعيه ، وخيل إليه أن روحه رحلت مع الرجل العجوز، فقد اختار مكاناً بعيداً عن القوم ، شاخصاً بعينين حالمتين إلى ماكانوا يغوصون فيه من مرج ، وقد يأتى إليه من يداعبه ؛ لأنه غارق فى العشق .

ولم تمض أيام قليلة ، حتى استعد والد « هان فوك » لدعوة أصدقائه وأقاربه ؛ لى يحدد يوم الزفاف ، غير أن العريس أبدى اعتراضه قائلاً : « أرجو أن تغفر لى اعتراضى على واجب يدين به الابن لأبيه ، ولكنك تعلم شوقى الشديد إلى أن أبرز فى فن الشعر ، ومع أن بعض أصدقائى يمتدحون قصائدى ، فإننى أعلم جيداً أننى مازلت مبتدئاً ، وفى المرحلة الأولى ؛ ولهذا أرجو أن تسمح لى بالنسير فى طريقى وحيداً فترة من الزمن ، وبأن أكرس نفسى لدراساتى ؛ إذ يبدو لى أننى لو اتخذت زوجاً ، وببنا أشرف على شؤنه ، فإن هذا سوف يمنعنى من ممارسة ما أريد . أما الآن ، فهازلت صغيراً بلا واجبات أخرى ، وأحب أن أعيش زمناً من أجل شعرى الذى أرجو أن أستمده منه السعادة ، وأكسب به الشهرة . » كانت دهشة الأب بالغة من حديث ابنه فقال : « لابد أن هذا الفن أعز عليك حقاً من كل شىء ، مادمت تريد أن ترجىء زواجك من أجله ، أم ترى قد حدث شىء بينك وبين عروسك ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأخبرنى حتى أستطيع أن أساعد على الصلح بينكما ، أو أن أختار لك فتاة أخرى . »

فأقسم الابن بأن عروسه المقبلة مازالت عزيزة عليه كما كانت ، وكما ستكون دائماً ، وأن ظلاً من الخلاف لم يهبط بينهما ، ثم أخبر والده أنه فى يوم مهرجان المصاييح زاره أستاذ فى منامه ، وأنه يتمنى أن يكون تلميذه فى لفة لاتعاد لها سعادة الدنيا كلها .

قال أبوه : « فليكن . . سأمنحك عاماً كاملاً¹ . وفى هذه الفترة يمكن أن تسعى وراء حلمك الذى ربما لم يكن الله هو الذى بعث به إليك . »
قال « هان فوك » متردداً : « ربما استغرق عامين . . من يدرى ؟ »

وتركه أبوه لشأنه ، وقد ساوره شيء من القلق ، إلا أن الشاب كتب رسالة لعروسه ، ثم قال : وداعاً ، ورحل .

وبعد أن تجول زمناً طويلاً ، بلغ منبع النهر ، فوجد عنده كوخاً من البوص (البامبو) في عزلة تامة ، وأمام الكوخ جلس الرجل العجوز الذي رآه بجانب الشجرة على شاطئ النهر - فوق نجيلة مجدولة ، يعزف على العود ، وعندما أبصر ضيفه يقترب منه متهيئاً ، لم ينهض ، ولم يقدم له التحية ، ولكنه اكتفى بالابتسام ، وترك أصابعه النحيلة تجرى على الأوتار ، فانبعثت موسيقا سحرية كأنها سحابة فضية تعبر الوادي ، فوقف الشاب مبهوراً ، وفي هذه الدهشة العذبة نسي كل شيء حتى وضع « أستاذ الكلمة الكاملة » عوده الصغير جانباً ، ودخل إلى الكوخ . تبعه « هان فوك » في تبجيل شديد ، ومكث معه بوصفه خادمه وتلميذه .

ولم يمض شهر حتى تعلم أن يزدرى كل قصائده التي نظمها من قبل ، ومسحها من ذاكرته مسحاً . وبعد بضعة أشهر كان قد مسح من ذاكرته أيضاً كل الأغاني التي تعلمها من أساتذته في بلده . ولم يكن الأستاذ يتحدث إليه إلا نادراً ، وفي صمت ، علمه فن العزف على العود ، حتى أصبح التلميذ مشبعاً بالموسيقا . وذات مرة كتب « هان فوك » قصيدة قصيرة وصف فيها طائرين يخلقان في سماء الخريف ، وكان مسروراً بهما ، ولم يجرؤ على إطلاع الأستاذ عليها ، ولكنه أخذ ينشدها ذات مساء خارج الكوخ ، فأصغى إليها الأستاذ في اهتمام ، ومع ذلك لم يقل شيئاً ، وإنما جعل يعزف في رقة على عوده ، وسرت البرودة في الجو ، وهبط العشق فجأة ، وهبت ريح قارسة على الرغم من أن الصيف كان قد انتصف ، وفي السماء التي استحال إلى اللون الرمادي حلق طائران من طيور البلشون في جلال

مهيّب ، وكان كل شيء أجهل وأكمل كثيراً من الأشعار التي نظمها التلميذ ،
الذي استولى عليه الحزن والصمت ، وأحس أنه لا يساوى شيئاً ، وكان هذا
ما يفعله الشيخ في كل مرة ، فلما انقضى عام ، كان « هان فوك » قد أوشك
أن يتقن العزف على العود إتقاناً تاماً ، إلا أن فن الشعر كان يبدو عصياً بعيد
المثال أكثر من ذي قبل .

فلما انقضى عامان ، أحس الشاب بحنين طاع إلى أسرته ، وإلى مسقط
رأسه ، وإلى عروسه ، فطلب من أستاذه أن يأذن له بالرحيل ، فابتسم
الأستاذ وأطرق برأسه قائلاً :

« أنت حر » ، وتستطيع أن تذهب حيثما شئت ، ولك أن ترجع ، أو
تبقى حيث أنت ، افعل ما يلائمك . »

وشرع التلميذ في الرحيل ، وواصل السفر دون انقطاع ، وذات صباح في
ضوء الشفق المعتم ، وقف على شاطئ النهر في مدينته ونظر عبر الجسر
المقوس إلى مسقط رأسه ، وتسلسل خفية إلى حديقة أبيه ، وأنصت خلال
نافذة حجرة النوم إلى صوت أبيه وهو يتنفس أثناء نومه ، ودخل إلى البستان
المجاور لبيت عروسه ، وتسلسل شجرة كمثرى أبصر عروسه واقفة في حجرتها
تمشط شعرها . فلما أخذ يقارن بين هذه الأشياء التي كان يراها رأى العين
بالصور الذهنية التي رسمها أثناء حنينه إلى وطنه ، أصبح من الواضح
بالنسبة إليه أنه قد خلق ليكون شاعراً ، وأدرك أن في أحلام الشاعر يكمن
جمال وسحر يبحث عنهما المرء عبثاً في عالم الواقع . وهبط من الشجرة ،
وأسرع خارجاً من الحديقة ، ماراً فوق الجسر ، بعيداً عن مدينته ، عائداً إلى
وادي الجبل السامق . كان الأستاذ الشيخ - كما كان يجلس دائماً - أمام

كوخه فوق نجيلته المتواضعة ، يضرب العود بأصابعه ، وبدلاً من أن يجبيه أنشد بيتين عن نعم الفن ، فاغرورقت عينا الشاب بالدموع ؛ لما فيهما من عمق وانسجام .

ومرة أخرى ، مكث « هان فوك » مع « أستاذ الكلمة الكاملة » الذي شرع يعلم تلميذه العزف على القيثارة ، بعد أن أيقن أنه أتقن العزف على العود . وذابت الشهور كما يذوب الجليد من رياح الغرب ، وعاوده الحنين إلى الوطن مرتين . وفي إحدى هاتين المرتين هرب متسللاً أثناء الليل ، ولكن ، قبل أن يصل إلى آخر منعطف في الوادي ، هبت ريح الليل على القيثارة المعلقة على باب الكوخ ، وظارده النغمات ، ونادت عليه أن يعود ، فلم يستطع مقاومتها . أما في المرة التالية ، فقد حلم بأنه يغرس شجيرة في حديقته ، وأن زوجته وأطفاله اجتمعوا حولها ، وأخذ الأطفال يروون الشجرة بالنبذ واللبن . فلما استيقظ من نومه ، رأى القمر ساطعاً في حجرته ، فنهض مشوش الذهن ، وشاهد في الحجرة المجاورة أستاذه نائماً ، ولحيته البيضاء ترتعش ارتعاشاً خفيفاً ، وهنا استحوذ عليه شعور بالكراهية المريرة لهذا الرجل الذي بدا له أنه حطّم حياته ، وخدعه في مستقبله ، وكاد يلقي بنفسه على الأستاذ ويقتله ، لولا أن الشيخ فتح عينيه وأخذ يتسم في عذوبة حزينه ولطف جرّد التلميذ من كل أسلحته .

قال الشيخ في رقة : « تذكر ياهان ، أنك حر في أن تفعل ماتشاء تستطيع أن تذهب إلى بيتك ، وأن تزرع الأشجار ، وتستطيع أن تبغضني وتقتلني . . والأمران سيان . »

صاح الشاعر وقد تأثر تأثراً عميقاً : « آه . . كيف أستطيع أن أبغضك ؟ سيكون ذلك كأنني أبغض الجنة نفسها . »

ومكث مع الشيخ ، وتعلم كيف يعزف على القيثارة ، ثم علي الناي ، وبدأ بعد ذلك يتعلم إنشاء القصائد تحت إشراف أستاذه ، وفي ببطء شديد تعلم ذلك الفن المستسر الذي يقول به في الظاهر أشياء بسيطة مألوفة ، ولكنه يحرك بها روح المستمع كما تحرك الريح صفحة الماء ، كان يصف طلوع الشمس ، وكيف تتردد على حافة الجبل ، ويصف اندفاع الأسماك الصامت عندما تنطلق كالظلال تحت المياه ، أو تميل شجيرة من أشجار البتولا هبت عليها نسمة الريح ، وعندما كان الناس يستمعون إليه ، لم يكونوا يفكرون في الشمس وحدها أو في تلاعب الأسماك أو في حفيف شجيرة البتولا ، بل كان يبدو لهم أن السماء والأرض يعملان معاً لحظة من الزمان في انسجام تام ، وكان كل مستمع يجد نفسه مدفوعاً إلى التفكير في فرح وألم عما يحبه أو يبغضه : الصبي في رياضته ، والشاب في حبيبته ، والشيخ في اقتراب موته .

ولم يعد « هان فوك » يعلم عدد السنين التي قضها مع « المعلم » بجوار نبع « النهر الكبير » ، وكثيراً ما خيل إليه أنه دخل هذا الوادي مساء الأمس فحسب ، وأن الشيخ قد استقبله عازفاً على آلهة الوترية ، وكثيراً ما خيل إليه أيضاً أن عصور الإنسان جميعاً وحقب التاريخ قد تلاشت من خلفه ، وأصبحت شيئاً لا وجود له .

وذات صباح استيقظ ليجد نفسه وحيداً في المنزل ، ومع أنه بحث في كل مكان ، ونادى على المعلم ، فإنه كان قد اختفى ، وفي لحظة واحدة ، أحس أن الخريف قد أقبل فجأة ، وهبت ريح هوجاء على الكوخ العتيق ، فهزته هزاً عنيفاً ، وعلى قمة الجبل الأشم تحركت أسراب ضخمة من الطيور المهاجرة ، مع أن موسم هجرتها لم يكن قد بدأ بعد .

وهنا أخذ « هان فوك » العود الصغير ، وهبط متجهاً إلى مقاطعته ، وعندما وجد نفسه بين قومه ، تقدم الناس لتحيته كما يحيون شيخاً وقوراً مبجلاً ، فلما بلغ بيته علم أن أباه وعروسه وأقاربه قد ماتوا جميعاً ، وأن أناساً يقيمون مكانهم . وفى المساء كان الناس يحتفلون بمهرجان المصابيح على ضفاف النهر ، فوقف الشاعر « هان فوك » على الجانب من الشاطئ المعتم ، وأسند ظهره إلى جذع شجرة عتيقة . وعندما عزف على العود الصغير، تنهدت النسوة وجعلن يتأملن الليل مسحورات ذاهلات ، وأخذ الشبان ينادون على عازف العود الذى لا يستطيعون الاهتداء إلى مكانه ، وقد تولتهم الدهشة ؛ لأن أحداً منهم لم يستمع أبداً إلى مثل هذه الألحان تنبعث من عود . إلا أن « هان فوك » تلقى هذا كله بالابتسام ، وشخص ببصره إلى النهر حيث كانت تطفو الصور المنعكسة لآلاف المصابيح ، ولما لم يكن يستطيع التمييز بين الانعكاسات وبين الواقع ، لم يجد أى اختلاف بين هذا المهرجان وبين المهرجان الذى حضره شاباً ، واستمع فيه إلى كلمات « المعلم الغريب » .



المركز الثقافي

١٩٦٥

وقفت إلى جانب
الفتحة المظلمة في
الصخرة عند

الممر الصعب

مدخل الممر ، متردداً ، ورجعت ببصرى إلى الوراء .

كانت الشمس مشرقة في هذا العالم الأخضر البديع ، وفوق المروج ،
أخذت أزاهير العشب المشربة باللون البنّي تتماوج وترتعش . وكان ممتعاً أن
يخرج المرء إلى هذا الدفء ، وإلى هذه الراحة المحببة ، حيث تترنم الروح في
عمق ورضا ، كما تطن نحلة في الأريج الكثيف وفي الضياء ، ولعلى كنت
من الحماقة عندما أردت أن أترك هذا كله ، وأن أتسلق سلسلة الجبال .

ولس دليل ذراعى في لطف ، فانتزعت عيني من هذا المنظر المحبب ،
كما يتحرر إنسان على غير إرادة منه من حمام دافئ . وهنا رأيت الممر ممتداً في
ظلمة لم تدركها الشمس ، وتسلك جدول أسود ضيئل من الفجوة ، وعلى
ضفتيه كان ينمو عشب شاحب في خصلات ، وفي حوضه رقدت الأحجار
التي هوى بها في طريقه ، أحجار من كل الألوان شاحبة ميتة كعظام
كائنات هلكت منذ وقت بعيد .

قلت للدليل : « لنأخذ قسطاً من الراحة . »

فابتسم فى شىء من التسامح ، وجلسنا على الأرض . كان الجو بارداً ،
ومن المدخل الصخرى انساب تيار من الهواء المعتم يحمل برودة الصخر .

شىء مقزز حقاً أن نمضى فى هذا الطريق ! مقزز أن يرغم المرء نفسه على
اقتحام هذا المدخل الصخرى الجهم ، وأن يعبر هذا الغدير البارد ، وأن
يتسلق فى الظلام هذا المضيق الضيق الوعر ! قلت فى شىء من الإحجام :
« يبدو الطريق بشعاً ! »

واشتعل داخل نفسى أمل قوى لا معقول غير قابل للتصديق ، كما
تشتعل جمرات من النار أو شكت على الخمود . . . الأمل بأنه قد يكون من
الممكن أن نعود على أعقابنا ، وأن دليلى قد يسمح لنفسه أن يقتنع ، وبأننا
يمكن أن نوفر على أنفسنا كل هذا العناء . أجل ، لماذا لانفعل هذا حقاً ؟
أليس المكان الذى تركناه من فورنا أجمل آلاف المرات ؟ ألا تتدفق الحياة
هناك ، أغنى ، وأدفاً ، وأشد سحراً ؟ ألم أكن كائناً بشرياً ، أشبه بالطفل ،
كائناً قصير العمر من حقه أن يأخذ نصيبه من السعادة ، ركنأ دافئاً تحت
الشمس ، وأن يستمتع برؤية السماء الزرقاء ، والأزهار ؟

كلا ، إنى أريد أن أمكث حيث كنت ، لأأريد أن أعب دور البطل
والشهيد ، وسأكون راضياً طيلة حياتى إذا أتيحت لى أن أبقى فى الوادى ، وفى
الشمس .

وبدأت الرجفة تسرى فى أوصالى فعلاً ، وكان من المستحيل أن أمكث
هنا طويلاً .

قال الدليل : « أنت ترتجف . . من الأفضل أن نمضى فى طريقنا . »
وما إن قال ذلك ، حتى نهض ، ووقف لحظة مشرباً بطوله الكامل ،

وألقى على نظرة مصحوبة بابتسامة ، كانت ابتسامة تخلو من الاستهزاء ، كما تخلو من التعاطف ، ولا وجود فيها للقسوة أو الشفقة . لم يكن فيها إلا الفهم ، ولاشئ فيها سوى المعرفة .

كانت الابتسامة تقول : « أنا أعرفك ، وأعرف خوفك ، وماتشعر به ، ولم أنس بحال من الأحوال ادعاءاتك أمس واليوم الذى قبله ، وكل إحساس بالجبن انغمست فيه روحك ، وكل نظرة غزل إلى الشمس البديعة المتألقة . . معروفة ومألوفة لى تماماً قبل أن تبديها . »

وبهذه الابتسامة ، نظر إلى الدليل ، وخطا الخطوة الأولى داخل تلك الفجوة الصخرية المعتمة ، متقدماً على ، وفي هذه اللحظة أبغضته وأحبته كما يبغض ويحب المحكوم عليه بالإعدام البلطة التى تهوى فوق عنقه . وأكثر من هذا كله ، كرهت معرفته وازدريتها ، وكرهت زعامته ورباطة جأشه ، وخلوه من ذلك الضعف المحبوب ، وكرهت فى نفسى كل مايتفق معه ، ويؤيده ، ومايريد أن يتشبه به ويتبعه .

وكان قد خطا فعلا عدة خطوات ، سائراً على الصخور عبر الغدير الأسود ، وكان على وشك الاختفاء عن ناظرى عند أول منعطف .

صحت : « قف ! » وكنت ممتلئاً بالخوف إلى درجة وجدتني فيها مدفوعاً إلى التفكير فى الوقت نفسه : لوكان هذا حلماً ، إذن فإن رعبى سوف يبدده فى هذه اللحظة ، فأصحو ، صحت : « قف ! لن أستطيع أن أفعل ذلك ، فلست مهيباً بعد . »

فتوقف الدليل ، والتفت ناظراً إلى فى صمت . ، دون تأنيب ، ولكن بذلك الفهم المخيف الذى يتبدى فى نظراته ، وبذلك المعرفة والإحساس المسبق ، وبأنه فهم كل شئ مقدماً تمام الفهم .

سألنى : « أتفضل حقاً أن نعود على أعقابنا ؟ » وقبل أن يكمل عبارته الأخيرة ، كنت أعرف ، وقد استبدى التمرّد ، أننى سوف أقول : لا ، بل لابد أن أقول : لا . وفى الوقت نفسه ، كل ما كان مألوفاً ، محبوباً ، موثوقاً به داخل نفسى يهتف يائساً : « قل : نعم ، قل : نعم ! » ، وأحسست كأن العالم كله ، ووطنى مقيدان إلى ساقى كأنهما كرة من حديد .

وأردت أن أصبح بهذه ال « نعم » ، وإن كنت أعلم جيداً أننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

وهنا أشار الدليل بذراعه ممدودة إلى الوادى ، فالتفت مرة أخرى صوب تلك المنطقة الحبيبة إلى قلبى . وكان ماشاهدته فى هذه اللحظة أشد إيلاماً لى من كل ما حدث لى من قبل : رأيت وديانى الحبيبة ، الحقول ترقد شاحبة ، منطفئة تحت شمس ممتعة واهنة ، والألوان تتصادم زائفة ، عالية النبرة ، وكانت الظلال شيئاً أسود صديقاً يخلو من السحر ، أما قلبى فقد انقطعت صلتها بالأشياء جميعاً ، بكل شيء ، وولى السحر ، وتلاشى العطر ، كان لكل شيء رائحة ومذاق الأشياء التى بلغت منذ وقت بعيد درجة الانغماس فى الغثيان . آه ! كم كنت أعرف هذا جيداً ، وكم كنت أخشى هذه الحيلة البشعة التى لجأ إليها الدليل وأمقتها ، هذه الإهانة لكل ماهو عزيز علىّ ، حبيب إلى قلبى ، وكأنه نزع كل مافيها من حمية وروح ، وزيف الروائح ، وبسكب السم سرّاً فى الألوان ! أجل ، كنت أعلم هذا ، وما كان خمراً بالأمس ، أصبح اليوم خلاً ، والخل لن يستحيل مرة أخرى إلى نبيذ !

كنت صامتاً حزيناً وأنا أسير فى أعقاب الدليل . . كان - كما كان دائماً - على صواب . وكان من الخير على الأقل - أنه ظل مرثياً لى - بدلا من أن

يختفى فجأة ويتركني وحيداً ، وهذا ما حدث كثيراً في لحظات اتخاذ القرار -
وحيداً مع هذا الصوت الغريب الذي يتردد في صدري ، والذي كان يتحول
إليه في مثل تلك اللحظات .

أخلدت إلى الصمت ، إلا أن قلبي كان يصرخ متلهفاً : « لا أطلب إلا
أن تبقى » وسأتبعك بكل تأكيد ! »

وكانت الأحجار في الغدير زلقة إلى درجة بشعة ، وكان السير على هذا
النحو مرهقاً مثيراً للدوار ، السير خطوة فوق أحجار صغيرة مبللة تنزلق
وتغوص تحت أقدام السائر . كما أخذ الممر الممتد من الغدير يرتفع في الوقت
نفسه ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً ، واقتربت جدران الصخرة المظلمة اقتراباً
شديداً بعضها من البعض الآخر ، وذهبت على نحو مشؤم ينذر بالويل ،
وفي كل ركن ، كانت تتبدى نيتها الخبيثة في أن توصل الممر خلفنا ، فتقطع
علينا خط الرجعة إلى الأبد . وفوق الصخور الصفراء المغطاة بما يشبه البثور،
كانت تسيل طبقة رقيقة لزجة من الماء ، واختفت السماء فوق رأسينا ، كما
ولّت ، وتلاشت الزرقة .

سِرْتُ ثم سرت ، تابعاً دليلي ، وكثيراً ما غمضت عيني خوفاً واشمزازاً .
وفجأة ، أبت رت زهرة داكنة اللون تنبت إلى جانب الممر ، كانت مخملية
السواد يشيع منها الحزن ، وكانت جميلة ، وتتحدث إليّ حديثاً مألوفاً . .
غير أن دليلي أسرع في سيره ، فأحسست أنني لو تسكعت لحظة واحدة ، أو
ألقيت نظرة أخرى على هذه العين المخملية الأسبانية ، لغمرتني الكآبة والغم
والياس بما لا أطيع ، وستظل روحي حبيسة إلى الأبد في هذه المنطقة الهائجة
من اللا إحساس والجنون .

زحفت شاعراً بالبلبل والقذارة ، وعندما تقاربت الجدران الرطبة فوق رأسينا أكثر فأكثر ، شرع دليلى فى إنشاد أغنيته القديمة على سبيل العزاء . وصوته القوى الفتى الواضح أنشد على وقع كل خطوة : « سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها ! » وكنت أعرف جيداً أنه يريد تشجيعى ، وحثّى على المضى . وكان يريد أن يصرفنى عن التفكير فى هذه الرحلة الجهنمية وماصاحبها من عناء بشع وإحباط ، وكنت أعرف أنه ينتظر منى أن أصاحبه فى الغناء على إيقاع خطواتنا ، ولكننى امتنعت عن هذا ، فما كنت أريد أن أمنحه هذا الانتصار . هل كُنت فى مزاج يسمح بالغناء ؟ أأست كائناً بشرياً ، رجلاً بسيطاً مسكيناً جره تحديه لقلبه إلى مواقف وأفعال تُتَوَقَّعُ منه ؟ ألا يسمح لكل زهرة من أزهار البنسيه وأزهار البنفسج أن تمكث حيث نمت على حافة الغدير ، وأن تزدهر وتذبل وفقاً لطريقتها الخاصة ؟

وأخذ الدليل يغنى بلا انقطاع : « سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها ! » آه لو كنت قادراً على الرجوع ! ولكننى استطعت من قبل بمعونة دليلى البارة أن أتسلق جدراناً وأن أجتاز هاويات لم يكن إلى الرجوع بعدها من سبيل . واحترقت الدموع فى حلقي ، ولكننى لم أجزؤ على البكاء . هذا أمر أبعد ما يكون . وهكذا صاحبت الدليل فى أغنيته متحدية الصوت ، وفى نفس الإيقاع والنغمة ، ولكن بكلمات غير كلماته ، فبدلاً منها أنشدت فى عزم وتصميم : « يجب علىّ ، يجب علىّ ، يجب علىّ ! » إلا أنه لم يكن من اليسير أن أغنى وأتسلق فى وقت واحد ، فسرعان ما تقطعت أنفاسى ، ووجدتني مرغماً على الصمت وأنا ألث ، ولكنه واصل الغناء دون أن يصيبه تعب : « سأفعلها ، سأفعلها ، سأفعلها ! » ولم تمض برهة حتى أرغمنى على مصاحبته فى الغناء بنفس كلماته . وهنا أصبح الغناء أيسر ، ولم أعد أشعر

بأننى مقهور على ما أقدمت عليه ، بل الواقع أننى أردت مواصلة الرحلة ، أما بالنسبة للتعب الذى خل بى من الغناء ، فقد ولى تماماً ، ولم يعد له أثر . ثم أحسست بإشراقه يشع من داخلى ، وكلما تزايد هذا الشعور ، تراجعت الصخرة الزلقة ، وأصبحت أكثر جفافاً ، وأشد عطفاً ، بل كانت تساعد قدمى المنزلة فى كثير من الأحيان . وفوق هذا كله أخذت صفحة السماء الزرقاء تزداد ظهوراً واتساعاً وكأنها جدول أزرق صغير بين ضفاف صخرية ، وسرعان ما يتحول إلى بحيرة صغيرة زرقاء تزداد طولاً وعرضاً .

وحاولت أن أمارس إرادتى على نحو أشد وأعمق ، وما برحت البحيرة السماوية تزداد رحابة ، والممر أكثر يسراً : أجل ، كنت أهرول بلا عائق فوق مساحات واسعة ، نحافظاً فى يسر على خطواتى مع الدليل دون أن أتخلف عنه . وفجأة ، وبلا توقع ، أبصرت القمة قريبة فوقنا ، شاهقة متألقة فى ضياء الشمس الساطعة .

وعند مسافة قصيرة تحت القمة زحفنا خارجين من ذلك الأخدود الضيق ، فهجمت الشمس على عينيّ المبهوتين ، وعندما فتحتها مرة أخرى ، كانت ركبتيّ تصطكان خوفاً ورعباً ، إذ وجدت نفسى واقفاً فى حرية ، دون سند ، على شفا جرف ، ومن حولى امتد الفضاء اللامتناهى ، والأعماق الزرقاء المربعة ، ولم تكن سوى الذروة الضيقة تطل علينا نحيلة كالسلم ، إلا أن السماء والشمس كانتا هناك مرة أخرى ، وهكذا تسلقنا ذلك المنحدر الأخير الرهيب خطوة خطوة بشفتين مضمومتين وجبين متعب . ولم نلبث أن وقفنا على القمة ، شكلا تافهان على الصخرة السابحة فى ضوء الشمس ، يلفحنا هواء حاد لاذع البرودة .

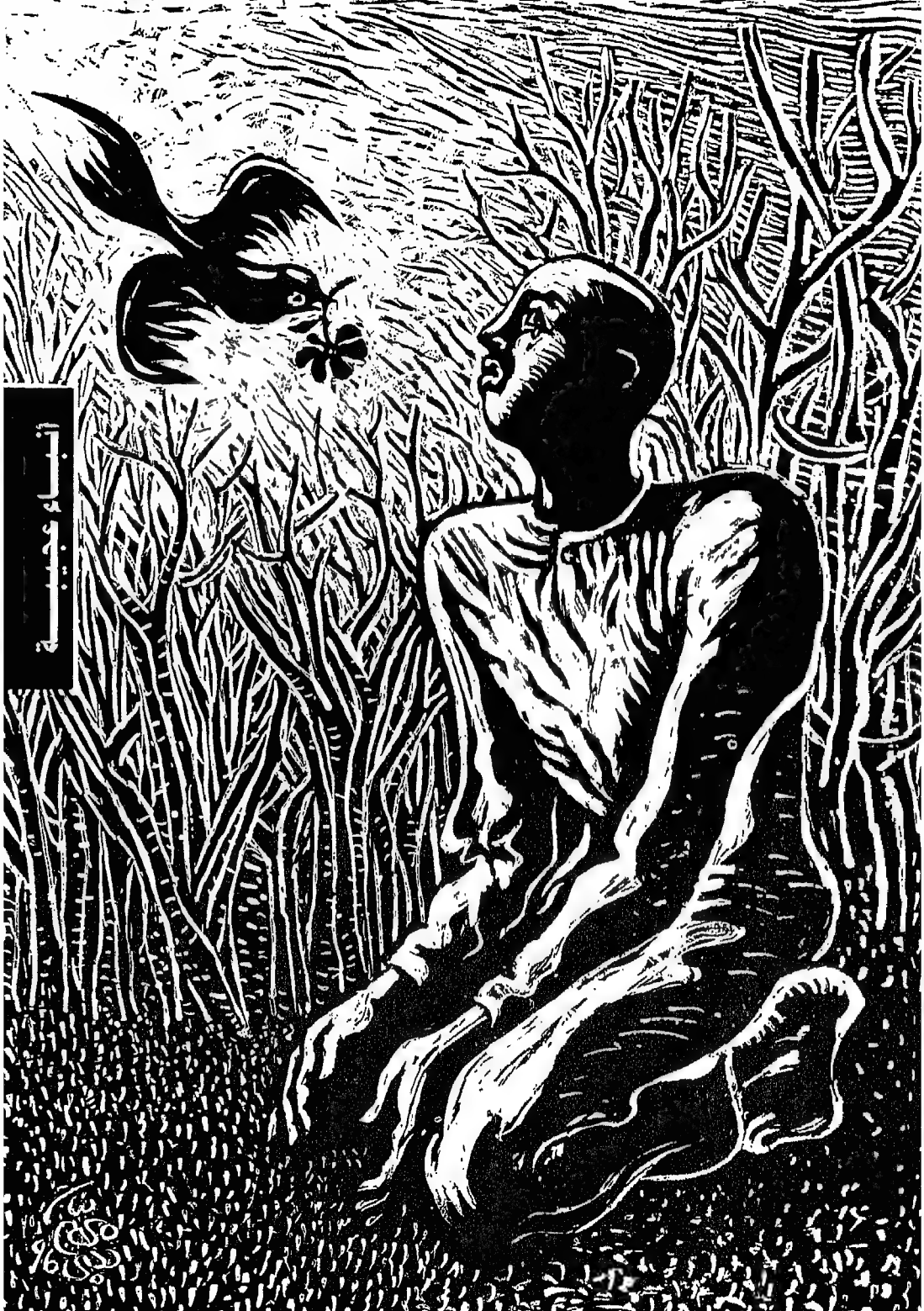
كان جبلاً غريباً ، وقمة غريبة ! كنا قد بلغنا الذروة بأن تسلقنا جدراننا

صخرية عارية تماماً ، وعلى القمة كانت تنمو على الصخرة شجرة ، شجرة
مكتنزة متينة البنيان تتفرع عنها أغصان قصيرة قوية . . . وهناك انتصبت
وحيدة غريبة ، صلبة عنيبة بصورة تند عن التصور ، تتخلل فروعها سماء
باردة زرقاء ، وفي أعلاها ، كان يرقط طائر أسود يصدر عنه غناء أجش .

حلم هادئ براحة قصيرة فوق العالم . الشمس تنوهج ، والصخرة
تتألق ، والشجرة تنتصب في عناد ، والطائر يغنى بصوت أجش . كانت
أغنيته الخشنة . تعنى : الأبدية ، الأبدية ! ومضى الطائر الأسود في غنائه ،
وكانت عينه الغائرة القاسية تحديق إلينا كأنها كرة بللورية سوداء . كان من
العسير احتمال نظرته ومن العسير احتمال غنائه ، وأكثر خوفاً من هذا كله
كانت وحشة المكان وخوؤه ، وامتداد السموات القاحلة . وكان الموت نعمة
لأسبيل إلى تصورها ، والبقاء هنا عذاباً لا اسم له . ينبغى أن يحدث شيء ،
على الفور ، حالاً ، وإلا تحولنا نحن والعالم إلى حجارة من الرعب وحده .
وأحسست بهذا الحدث يصبح نحونا ساخناً ، ضاغطاً أشبه بلفحة الريح
قبل هبوب العاصفة . أحسست به يرفرف فوق جنسدى وروحي كالحمى
المحرقة . كان يتهددنا بأنه وشيك المجيء ، كان هناك .

وفجأة ، حلق الطائر راحلاً عن غصنه ، وغاص مباشرة في الفضاء .
وفي وثبة واحدة ، غاص دليلى في الزرقة ، وسقط صوب السموات
المتوهجة ، وطار بعيداً .

وهنا بلغت الأقدار ذروتها ، وانتزعت فؤادى ، ثم غرقت في الصمت .
وكنت أهوى فعلاً أن أغوص وأثب وأطير ، متلفعاً بدوامة باردة ، مرقط
كالسهم هائناً ، نابضاً بالأم الوجد ، هابطاً عبر اللانهاية إلى صدر الأم .



البناء عجيبة

١٩٨٥
٩٦

تعرضت مقاطعة
جنوبية من كوكبنا
الرائع لكارثة

أشياء عجيبة من نسم آخر

عظيمة ؛ ذلك أن زلزالاً مصحوباً بعواصف رعدية رهبة وفيضانات دمر ثلاث قرى كبيرة ، بجميع ما فيها من مزارع وحدائق وحقول وغابات . وقُتِلَ في هذه الكارثة عدد كبير من الناس والحيوانات ، ولعل ما كان أشد إثارة للحنن هو ماعانته تلك المقاطعة من نقص تام في مقدار الزهور الكافية لتشجيع الموتى وتزيين مثواهم الأخير .

وكان كل ما ينبغي صنعه ، قد صُنِعَ بالطبع دون إبطاء . فأرسل الرسل على الفور بعد تلك الساعة الفاجعة يحملون نداءً عاجلاً إلى القرى المجاورة لتقديم المعونة والإحسان ، ومن أبراج المقاطعة جميعاً أخذ المنشدون يتلون الآيات المؤثرة تأثيراً عميقاً والمعروفة من قديم الزمان مثل الترتيل الموجه إلى إله الرحمة ، وهو ترتيل لا يستطيع أحد أن يقاوم ألحانه . وتقاطر المتعاطفون وأصحاب القلوب الرحيمة أفواجاً من المدن والقرى جميعاً ، وانهارت الدعوات الحارة على المنكوبين الذين أصبحوا بلا مأوى من الأقارب والأصدقاء ، بل من الغرباء أيضاً لإيوائهم ومشاطرتهم بيوتهم . وأخضر الطعام والثياب ، والخيل والعربات ، والأدوات ، والحجارة ، والأخشاب ،

وكثير من المواد الأخرى ، من كل الجهات . وبينما كان المستضعفون من الرجال والنساء العجائز والأطفال يبعدون بأيدٍ رحيمة ، مع تقديم وسائل الراحة والعزاء والعناية ، وبينما كان المصابون تُضَمَّدُ جروحهم ، يجري البحث عن الموتى على قدم وساق بين الأنقاض ، كان فريق آخر من الناس يعملون في إزالة السقوف المنهارة ، ويدعمون الجدران التي تريد أن تنقض بالأعمدة والعوارض ، ويمهدون لإعادة بناء سريعة . وفي بداية الأمر ، كانت أنفاس الرعب تخيم على الجو ، ومن الموتى انبعث تذكير بالحزن وحُضُّ على الصمت الوقور ، ولكن سرعان ما لاحت على الوجوه وشاعت في الأصوات نغمة أكثر مرحاً ، وسرت روح مهرجانية مكتومة : ذلك أن المجهود المشترك الذى يبذل في هذه المهمة العاجلة ، والإقبال على أفعال حميدة جديدة بالشكر والثناء ، أدخلنا الاطمئنان على كل قلب . وفي أثناء قيام رجال الإنقاذ بمهمتهم في رهبة وصمت ، كنت تسمع هنا وهناك صوتاً ينم عن الحبور ، أو أغنية مكتومة تصاحب العمل المشترك ، وكما هو متوقع ، كانت أحب الأغاني حكمتين قديمتين .

« ما أعظم أجر الذى يسارع إلى معونة من أصابته مصيبة ، فإن قلبه يتشرب العطف . كما تشرب حديقة عطشى أمطار الربيع ، وتجبب عن ذلك بالأزهار وألوان السكر . » والحكمة الأخرى : « إن نعمة الله يغدقها على العمل الذى يشارك فيه الجميع . »

إلا أنهم صادفوا ذلك النقص الخطير في الزهور . والواقع أن الموتى الأوائل الذين أخرجوا من تحت الأنقاض زينوا بالزهور والأغصان التى جمعت من الحقائق المدمرة . وبحث الناس عن كل الأزهار المتاحة من المدن المجاورة ، إلا أن سوء الطالع لازم هذا البحث ، إذ دمر الزلزال القرى

الثلاث التى كانت تملك أوسع حدائق الزهور وأبدعها فى هذا الموسم من السنة . وكان الناس يقبلون على زيارة هذه الحدائق سنوياً لمشاهدة زهور النرجس والزعفران التى لم تكن توجد بمثل هذه الكميات الهائلة ، أو تزرع بمثل هذه العناية الفائقة ، أو تتميز بهذا التنوع البديع فى الألوان . والآن ، تحطم هذا كله ، ولم يعد له وجود . وهكذا وقع الناس فى حيرة شديدة لا يدرون كيف يؤدون الطقوس المألوفة لكل هؤلاء الموتى ، أو اتباع التقليد الذى يأمر بأن يزيّن كل إنسان أو حيوان عند موته بزهور الموسم ، وأن تكون مراسم الدفن أغنى ما تكون كلما كانت الوفاة مباغتة وفاجعة .

ووجد كبير المقاطعة نفسه - وقد وصل فى عربة من عربات الإنقاذ الأولى - محوطاً بالأسئلة ، غارقاً فى الالتباسات والشكاوى ، يبحث وجد مشقة شديدة فى الاحتفاظ بريادة جأشه ، وهدهوء أعصابه . ولكنه استطاع بمجهود أن يحتفظ بقلبه هادئاً ، وظلت عيناه مشرقتين ودودتين ، وصوته واضحاً مجاملاً ، ولم تفقد شفثاه لحظة واحدة ابتسامته الوادعة العطوف التى جعلت منه رجلاً حكيماً ناصحاً .

قال : أصدقائى ، لقد نزلت بنا مصيبة وفقاً لمشيئة الإله الذى أراد أن يمتحننا ، ونحن نستطيع أن نعيد البناء وأن نعيد إلى إخواننا كل ما دمر هنا ، وأنا أحمد الله أن أذن لى - وأنا فى سن الشيخوخة - أن أشاهد الطريقة التى سارعت بها إلى هنا ، تاركين أعمالكم ؛ لتقديم العون إلى إخوانكم . ولكن ، أين نجد الزهور التى نستطيع بها أن نزين الموتى كما يليق بهم ؛ لنحتفل بانئقاهم إلى العالم الآخر ، فلا ينبغى أن يحدث أبداً - مادامنا أحياء - أن يدفن فرد واحد من هؤلاء الحجيح المكدودين دون قربان الزهور المناسب . ولا أشك فى أنكم توافقوننى على ذلك . «

فهتفوا جميعاً : « أجل . . هذا مانراه أيضاً . »

قال كبيرهم بصوته الأبوى : « أنا أعرف ذلك . وسأخبركم الآن ماذا ينبغي أن نفعل ، يا أصدقائي . علينا أن ننقل هؤلاء الموتى الذين لم نستطع أن ندفنهم اليوم إلى المعبد الصيفي الكبير ، المشيد فوق أعلى الجبال حيث مازال الجليد باقياً . وهناك ، سيكونون سالمين ، وسيمكثون دون تغيير حتى نستطيع العثور على زهورهم ، وهناك واحد فقط يستطيع أن يساعدنا في الحصول على كثير من الزهور ، في هذا الموسم ، الملك وحده هو القادر على أن يفعل ذلك . ومن ثم ينبغي أن نبعث بأحدنا إلى الملك ؛ ليلتمس معونته »

ووافقوا جميعاً مرة أخرى صائحين : « أجل ، أجل . إلى الملك ! . »

قال كبيرهم : « فليكن الأمر على هذا النحو » وشعر الجميع بالسعادة وهم يشاهدون ابتسامته المشرقة تحت لحيته البيضاء . « ولكن » من ذا الذي سوف نرسله إلى الملك ؟ ينبغي أن يكون شاباً قوياً ؛ لأن الرحلة طويلة ، وينبغي أن نزوده بأفضل جواد عندنا . وينبغي - على كل حال - أن يكون وسيماً أيضاً ، نقى القلب ، متألق العينين بحيث لا يملك قلباً له صدأ . ولا حاجة به أن يتكلم كثيراً ، ولكن ينبغي أن تعرف عيناه كيف تتكلم . وليس من شك أن من الخير إرسال طفل ، أشد الصبيان وسامة في مجتمعنا ، ولكن كيف يستطيع القيام بمثل هذه الرحلة ؟ لابد أن تساعدوني أيها الأصدقاء ، وإذا كان هناك من يستطيع القيام بهذه المهمة ، أو يعرف شخصاً ملائماً ، فأرجوه أن يتكلم . »

وأخذ كبيرهم إلى الصمت ، وهو يدير عينيه المتألفتين باحثاً منتظراً ، غير أن أحداً لم يتقدم إلى الإمام ، ولم يرتفع صوت .

فلما أعاد سؤاله مرة ثانية ، ثم ثالثة ، خرج من الحشد فتى فى السادسة عشرة من عمره ، لا يعدو أن يكون طفلاً فى مظهره . وغض عينيه إلى الأرض ، واحمرت وجنتاه خجلاً وهو يحبى كبيرهم .

ونظر إليه الكبير ، فأدرك على الفور أن هذا الفتى هو الرسول المناسب ، ولكنه ابتسم قائلاً : « إنه لشيء جميل أن تريد أن تكون رسولنا ، ولكن كيف حدث أنك الوحيد الذى تطوعت من هذا الحشد كله ؟ »

وهنا رفع الفتى عينيه شاخصاً إلى الرجل العجوز ، وقال : « إذا لم يكن هناك من يريد أن يذهب ، إذن ، فدعنى أذهب . »

غير أن رجلاً من الحشد صاح : « أرسله أيها الكبير . نحن نعرفه . لقد جاء من هذه القرية ، ولقد دمرت الزلازل بستان أزهاره ، وكان بستانه أجل بستان للزهور فى قرينتنا . »

ونظر الكبير فى كثير من العطف فى عيني الفتى ، وسأله : « أترك حزينا جداً على زهورك ؟ »

فأجاب الفتى فى هدوء شديد : « أنا حزين حقاً ، ولكن ليس هذا هو السبب الذى دفعنى للتطوع . فقد كان لى صديق عزيز ، ومهر جميل أثير عندى ، قُتل الاثنان معا فى الزلزال ، وهما يرقدان الآن فى تلك القاعة ، ولا بد من أن توجد زهور حتى أتمكن من دفنهما . »

وباركة الرجل الكبير بأن وضع عليه راحتيه ، وسرعان ما اختار له القوم أفضل الجياد ، فوثب فوراً إلى ظهره ، وربت على عنقه ، وأوماً برأسه للجمع مودعاً ، وانطلق من القرية راكضاً ، مقتحماً الحقول الموحلة القاحلة التى خربها الزلزال ، مبتعداً عن القرية .

وظل الفتى يرمح بجواده يوماً كاملاً . وكان عليه - لكى يبلغ العاصمة ويمثل بين يدى الملك بأسرع مافى وسعه - أن يختار طريق الجبال . وعندما حَلَّ المساء ، وتراكت الظلمات ، كان يقود جواده من أعتته مصعداً فى درب عميق الانحدار وسط الغابات والصخور .

وطار طائر ضخم لم يشاهد مثله من قبل أمام ناظره ، وظل يتابعه حتى هبط الطائر على سقف معبد صغير مفتوح . وترك الشاب جواده عند ممر فى الغابة ، وتقدم خلال الأعمدة الخشبية متجهاً صوب المحراب البسيط . وعند موضع تقديم القرابين لم يجد سوى جحر متواضع ، قُطِعَ من صخرة سوداء لا وجود لنوعها فى تلك الأماكن ، وقد نقش عليها رمز غريب لآله لا يعرفه الفتى المرسل : وكان عبارة عن قلب يلتهمه طير جارح .

وحتى يبدى تبجيله لذلك الإله ، قرب إليه زهرة زرقاء تشبه الجرس كان قد التفتطها عند سفح الجبل ووضعها فى عروته ، ثم رقد بعد ذلك فى ركن من أركان المعبد ، إذ كان التعب قد أنهكه ، فأراد أن ينام .

إلا أنه لم يجد إلى النوم سبيلاً . ذلك النوم الذى اعتاد أن يزور فراشه كل ليلة ، فقد انبعثت من تلك الزهرة الشبيهة بالجرس التى وضعها على الصخرة ، أو من الحجر الأسود نفسه ، أو من أى مكان آخر ، رائحة غريبة نفاذة مثيرة ، وتألّق رمز ذلك الإله الضارم بإشعاع طيفى فى تلك القاعة المعتمة ، وعلى السقف ، حط الطائر العجيب الذى أخذ يضرب بجناحيه الهائلين من حين إلى آخر ، بحيث انبعث من الأشجار حفيف أشبه بالصوت الذى يسبق عاصفة وشيكة .

وهكذا نهض الفتى فى منتصف الليل ، وغادر المعبد ، ونظر إلى الطائر . فصفق بجناحيه ، وسدد عينيه إلى الفتى .

سأله الطائر : « لماذا لم تتم ؟ »

قال الفتى : « لست أدري ، ربما لأنني تعلمت الحزن . »

- « أى نوع من الحزن ؟ »

- « لقد هلك صديقى ومهرى الأثير فى وقت معاً . »

فسأله الطائر مزدرياً : « وهل الموت سيىء إلى هذا الحد ؟ »

- « كلا ، أيها الطائر العظيم . إنه ليس سيئاً إلى هذا الحد ، إنه لا يعدو أن يكون وداعاً ، وليس هذا هو سبب حزنى . الشئ السيىء هو أننا لانستطيع أن نوارى صديقى وجوادى الجميل ؛ لأنه لم يعد لدينا زهور . »
قال الطائر : « ثمة أشياء أسوأ من ذلك كثيراً » ، ونفض ريشه فى شئ من نفاد الصبر .

- « كلا ، أيها الطائر ، لاشئ أسوأ من ذلك بالتأكيد ؛ ذلك أن من يدفن دون قربان الأزهار يحرم من مولده الجديد وفقاً لما يهوى قلبه ، وكل من يدفن موتاه دون الاحتفال بتقديم الأزهار ، ستزوره أطيايف الراحلين عنه فى أحلامه . وتستطيع الآن أن تدرك خطورة المسألة ، وحتى أنا لآستطيع الآن أن أنام ؛ لأن موتاى مازالوا يرقدون بلا زهور . »

وأطلق الطائر صيحة خشنة من منقاره المعقوف .

- « أيها الشاب ، أنت جاهل بالحزن إن لم تتعلم شيئاً يتجاوز ماتقول . ألم يقص عليك أحد شيئاً عن كبائر الشرور : عن البغض ، والقتل ، والغيرة ؟ »

وعندما تناهت هذه العبارات إلى سمع الفتى ، أحس كأنه يحلم ،

ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وقال في تواضع : « بكل تأكيد ، أيها الطائر ، أنا أتذكر طبعاً ، فهذه الأشياء مسطورة في الحكايات القديمة وفي الأساطير ، إلا أن هذه الأمور جميعاً تدور خارج الواقع ، بكل يقين ، أو لعل الأمور كانت تسير في العالم على هذا النحو وعندما لم تكن هناك زهور ، أو آلهة رحيمة . ولكن هيهات أن يفكر أحد في تلك الأزمنة ! »

وضحك الطائر ضحكة لطيفة ، وشب على مخالبه حتى بدا أطول مما كان ، وقال للفتى بصوته الأجش : « إذن ، أنت تريد الآن أن تذهب للملك ، وسأدلك على الطريق » هتف الفتى مسروراً : « أو تعرف الطريق ؟ . أجل إنك قادر على ذلك ، أرجوك أن تفعل . »

وانساب الطائر العملاق في هدوء ، هابطاً على الأرض ، وفي غير ضجة ، نشر جناحيه أحدهما بعيداً عن الآخر ، وأشار إلى الفتى أن يترك جواده خلفه ، وأن يرافقه إلى الملك .

وامتطى الرسول الطائر كما يمتطى جواده ، وأمره الطائر قائلاً : « أغمض عينيك ! » فامتثل الفتى للأمر ، وطار خلال ظلمة السماء ، في هدوء وانسياب ، كما تطير البومة . ولم يكن الفتى يسمع غير صفير الرياح الباردة في أذنيه . وظلا يطيران حتى انتهى الليل .

وفي الصباح الباكر ، توقفا عن الطيران ، وهتف الطائر : « افتح عينيك . » وفتح الفتى عينيه . فألقى نفسه واقفاً على حافة غابة ، وتحت قدميه ، وفي ألق الصباح الأول ، أشرق واد ، كان من السطوع بحيث بهر عينيه .

صاح الطائر : ستجدني هنا مرة أخرى عند حافة الغابة ، وشق عنان السماء كالسهم ، ولم يلبث أن اختفى في الصفحة الزرقاء

واستولى شعور غريب على الرسول الشاب حينما أخذ يتجول خارجاً من الغابة إلى السهل المنبسط . كان كل شيء حوله مختلفاً إلى درجة لم يكن يدرى معناها : أهو مستيقظ أم حالم . كانت هناك غياض وأشجار تشبه ماكان يراه في وطنه ، وكانت الشمس ساطعة ، والرياح تداعب الأعشاب الطويلة ، إلا أنه لم يكن ثمة إنسان أو حيوان ، أو منازل أو حدائق . .

وإنما كان يبدو - بدلاً من ذلك - أن زلزالاً قد وقع هنا كما وقع في موطن الفتى تماماً ، فهنا وهناك تناثرت أنقاض المباني ، والفروع المتكسرة ، والأشجار التي اجتثت من جذورها ، والأسوار الملتوية ، وأدوات الزراعة المهجورة منتشرة في كل مكان ، وفجأة ، أبصر وسط أحد الحقول رجلاً ميتاً في حالة بشعة من حالات التعفن والانحلال ، وأحس الفتى بالتقزز ، وارتفع شعور بالغثيان إلى حلقومه ، فلم يكن قد أبصر شيئاً كهذا من قبل : إن أحداً لم يعبأ حتى بتغطية وجه الميت ، فنهشته الطيور ، وعاث فيه الفساد . وجعل الشاب يجمع بعض أوراق الشجر وقليلاً من الزهور ، وبعينين تتحاشيان النظر ، قام بتغطية ماتبقى من وجه الميت .

وكانت ثمة رائحة بشعة مقبضة لايبلى مداها التعبير تخيم دافئة لافكاك منها على السهل بأسره . وهناك رقدت جثة أخرى قريبة على العشب يحاصرها سرب من الغربان ، وإلى جوارها جواد مفصول الرأس ، وعظام أناس وحيوانات . وكان الجميع معرضين للشمس ، وقد تركهم أهلهم الأحياء دون أن يفكر أحد منهم في قرابين الزهور ، أو في الدفن . بدأ الفتى يخشى أن تكون ثمة كارثة هائلة أصابت هذه البلاد فأهلكت كل من فيها ، ولم تغادر منهم أحداً . وكان الأموات من الكثرة بحيث أفلح عن التقاط الزهور لتغطية وجوههم . وأخذ يجوس خلال الديار وقد استولى عليه

الرعب ، بعينين نصف مغمضتين ، وغمرته من كل أقطاره رائحة الجيف
التنة ، ورائحة الدم ، ومن آلاف الأطلال المكدسة ، ومن ركام الموتى
تدفقت موجات من البؤس والأسى الصامت أخذت تشتد شيئاً فشيئاً .
واعتقد الفتى أنه وقع في حلم مريع كان أشبه بنذير من آلهة السماء ؛ لأن
موتاه مازالوا بلا قرابين من الزهور ، وبلاد فن . وحينئذ تذكر مناطق به
الطائر الغامض فوق سقف المعبد ليلة أمس ، وتردد في سمعه مرة أخرى
صوته الأجنس مؤكداً : « هناك أشياء كثيرة أسوأ من ذلك . »

وأدرك الآن أن ذلك الطائر قد حمله إلى نجم آخر ، وأن كل ماتبصره عيناه
كان واقعاً حقيقياً ، واستحضر شعوره الذي كان يراوده أحياناً - وهو طفل -
حينما يستمع إلى الحكايات المخيفة عن سالف الأزمنة ، هذا الشعور الخاص
عائده مرة أخرى : رعب يبعث القشعريرة في أوصاله ، ووراء هذا الرعب
يقين هادئ سعيد يملأ قلبه ، بأن هذا كله بعيد بعداً ليس متناهياً ، في
الماضي السحيق . وهنا كان كل شيء أشبه بقصة من قصص الرعب ، هذا
العالم من الكوارث والجثث وجوارح الطير كان يبدو له كله خالياً من المعنى ،
ومن التحكم ، خاضعاً لقوانين غير مفهومة ، قوانين مجنونة ينتصر
بمقتضاها دائماً الشرير واللامعقول والقيح بدلاً من الجميل والخير .

وهنا لمح رجلاً حياً يسير عبر الحقل ، لعله مزارع ، أو أجير في مزرعة ،
فركض مسرعاً نحوه ، ونادى عليه . فلما اقترب منه الفتى أجفل ، وامتلاً
قلبه بالشفقة ، فقد كان ذلك الفلاح يبدو دميماً دماً مخيفاً ، بحيث
لا يكاد يشبه ابناً من أبناء الشمس ، وكان مظهره ينم عن الأنانية ويوحى
بالامتعاض ، فهو رجل اعتاد على رؤية كل ماهو زائف وقبيح ، وشرير ،
وعاش دائماً في الكوابيس المرعبة . وفي عينيه ، وفي وجهه ووجوده كله ، لم

يكن ثمه أثر للرزانة أو العطف ، أو ومضة من الشهامة والثقة ، هذه الفضائل البسيطة ، الطبيعية جداً ، كانت معدومة تماماً في هذا الإنسان .
التعس .

غير أن الشاب استجمع نفسه ، واقترب من الرجل بود شديد كما يقترب من إنسان نكبه الدهر ، وحياه بطريقة ودية ، وتحدث إليه مبتسماً . واستدار إليه الرجل القبيح ، وكأنهما استحالاً حجراً ، وأخذ ينظر في دهشة بعينين منزعجتين أشد الانزعاج ، وعندما تحدث كان صوته خشناً لا موسيقية فيه كأنه غناء الماشية . ومع ذلك ، فإنه لم يكن يستطيع أن يقاوم متبدي في عيني الشاب من وداعة وثقة . وعندما تفرس لحظة في وجه الغريب لاحت على وجهه الفظ المعذب شبه ابتسامة ، أو تقطية - فيها من القبح مايكفى ، ولكنها لطيفة مندهشة ، أشبه بالابتسامة الخافتة الأولى لروح ولدت من جديد ، وخرجت لتوها من أدنى مناطق الأرض .

سأل الفتى : « ماذا تريد مني ؟ »

وتشياً مع عادات وطنه ، أجاب الفتى : « أشكرك أيها الصديق ، وأرجوك أن تخبرني إن كانت هناك أية خدمة أستطيع أن أسديها إليك . »

فلما التزم الفلاح الصمت ، وظل يبتسم في دهشة وارتباك ، قال الفتى :
« أخبرني ، أيها الصديق ، ماذا حدث هنا ؟ ماهذه الكارثة الرهيبة المروعة ؟ » وأشار بيده إلى ما يحيط بهما من خراب ودمار .

ولم يفهم الفلاح لأول وهلة ، فلما أعاد الفتى سؤاله قال : « ألم تر شيئاً كهذا من قبل ؟ هذه حرب ، وهذه ساحة المعركة . » وأشار إلى كومة من

الأنقاظ المسودة وصاح : « كان هذا بيتى ! » وعندما نظر الغريب بقلب ملؤه التعاطف إلى عيني الفلاح المكدرتين ، أخفضهما ، وأطرق برأسه إلى الأرض .

ومضى الفتى سائلاً : « أليس لكم ملك ؟ » وعندما أجابه الفلاح بأن لديهم ملكاً ، واصل أسئلته قائلاً : « إذن ، فأين مكانه ؟ » وأشار الرجل إلى معسكر لا يكاد يظهر إلا في عسر ، فقد كان قصياً ضيقاً ؛ لبعده المسافة . واستودعه الفتى بأن وضع راحته على جبين الرجل ، وشرع في الرحيل . إلا أن الفلاح رفع كلتا يديه إلى جبهته ، وهز رأسه الثقيل متحيراً ، ووقف زمناً شاخصاً ببصره إثر الغريب .

وأخذ الفتى يعدو ويعدو ، عبر الأنقاظ والفظائع حتى بلغ المعسكر . وهناك وجد رجالاً مسلحين في كل مكان ، واقفين أو مهولين ، ولا يبدو أن أحداً أحس بوجوده ، فسار بين الرجال والحيام حتى وصل إلى أضخم وأجل خيمة في المعسكر ، وكانت خيمة الملك ، فدخل .

وفي الداخل ، كان الملك جالساً على أريكة بسيطة منخفضة ، وكانت عباءته إلى جانبه ، وإلى جواره ، اختفى في الظل الداكن خادم استسلم للنوم . وكان الملك يجلس منحنيّاً مستغرقاً في الفكر . كان وجهه جميلاً حزيناً ، وفوق جبينه الذي لوحته الشمس تدلت خصلة من شعره الذي وخطه الشيب ، أما سيفه فكان ممتداً أمامه على الأرض ، وحياء الفتى في إجلال عميق ، كما يحى مليكه ، ووقف شابكاً ذراعيه على صدره حتى لمحاه الملك .

سأله الملك في قسوة : « من أنت ؟ » وعقد ما بين حاجبيه الداكنين ، إلا

أن نظرتة تعلقت بملامح الغريب الصافية الهادئة ، ونظر إليه الفتى نظرة حميمة ملؤها الثقة جعلت صوت الملك ألطف مما كان .

قال بلهجة يشيع فيها التأمل : « لقد رأيتك من قبل في مكان ما ، أو لعلك تبدو كشخص عرفته في طفولتي . »

قال الرسول : « ما أنا إلا غريب . »

فقال الملك في نعمة : « إنك تذكرني بأمرى . تحدث إلى . اشرح لى . »
فبدأ الفتى : « حملنى طائر إلى هنا ؛ فقد وقع زلزال في بلدى ؛ ومن ثم نحن نريد أن ندفن موتانا ولانجد زهوراً . . »

قال الملك : « لا تجدون زهوراً ؟ »

- « نعم ، لازهور على الإطلاق . وهذا شئ سئ . أليس الأمر سيئاً إذا كان علي المرء أن يدفن ميتاً ولايستطيع أن يقيم حفلاً للزهور من أجله . . فلابد - على كل حال - أن يدخل في انتقاله إلى العالم الآخر بروعة وفرح . »

وتذكر الرسول بغتة ذلك العدد الكبير من الموتى الذين لم يدفنوا على ساحة المعركة الرهيبة ، فتوقف عن الكلام ، فنظر إليه الملك ، وأطرق برأسه ، ثم تنهد تنهداً عميقاً .

فواصل الرسول حديثه قائلاً : « كنت في طريقى إلى مليكنا لأطلب منه كثيراً من الزهور ، ولكن عندما كنت في المعبد القائم بين الجبال ، جاء طائر كبير وقال : إنه يستطيع أن يحملنى إلى الملك ، وهكذا طار بى حتى وصلت إليك ، وكان المعبد - أيها الملك العزيز - معبد إله مجهول ، وهو الذى حط الطائر على سقفه ، وهناك أقيم في محراب ذلك الإله رمز شديد الغرابة :

قلب إنسان يلتهمه طير جارح . وفي أثناء الليل دارت محادثة بينى وبين الطائر الكبير ، وأنا أستطيع الآن أن أفهم كلماته لأول مرة ، إذ قال لى : إن فى العالم عذاباً وشرّاً أكثر كثيراً مما أعرف . وأنا الآن هنا ، وقد عبرت تلك الساحة الهائلة ، وفى خلال هذه الساعات شاهدت آلاماً ونكبات لاحد لها - أكثر كثيراً مما تحتويه أشد حكاياتنا رعباً . وهأنذا الآن قد أتيت إليك . أيها الملك . وأحب أن أسالك ، إن كنت أستطيع أن أؤدى أية خدمة لك . »

وحاول الملك الذى أصغى بانتباه - أن يبتسم ، غير أن محياه الوسيم كان من الحزن والمرارة بحيث لم يستطع الابتسام .

قال : « أشكرك . . إنك لاتستطيع أن تؤدى لى أية خدمة ، ولكنك أعدت أسمى إلى ذاكرتى ؛ ولهذا أشكرك . »

وانزعج الفتى إذ رأى الملك عاجزاً عن الابتسام .

فقال له : « ما أشد حزنك ! . أهو بسبب الحرب ؟ »

فقال الملك : « أجل . »

ولم يتمالك الشاب نفسه من انتهاك قواعد اللياقة نحو هذا الرجل النبيل الذى يحمل أعباء جسيمة ، فسأله : « ولكن - أتوسل إليك ، إلا أخبرتنى : لماذا تشن مثل هذه الحروب على نجمعكم ؟ ومن هو المسئول عنها ؟ أتكون أنت نفسك مسئولاً إلى حد ما ؟ »

وبدا على الملك أنه غضب من هذه الجرأة ، وظل برهة محملاً إلى الفتى الغريب ، لكنه لم يستطع مواصلة تلك المواجهة بين نظرتة القاتمة وبين عيني الغريب المشرقتين الصريحتين .

قال الملك : « أنت طفل . وهناك أمور لا تستطيع أن تفهمها . إن الحرب ليست غلطة أحد ، إنها تحدث من تلقاء نفسها ، كالعاصفة أو البرق ، ونحن الذين نجوض الحروب ، لسنا نحن الذين نشعلها ، مانحن إلا ضحاياها . »

فسأله الشاب : « لاشك - إذن - في أنكم تموتون في يسر ، أما نحن - في بلدنا - فمن المؤكد أن الموت لا يخيفنا كثيراً ، ومعظم الناس يقبلون على هذا الانتقال سعداء متاهيين ، إلا أن أحداً منا لا يجسر أبداً على قتل شخص آخر ، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً في نجمكم . »

وهز الملك رأسه : « من الحق ، أن القتل ليس نادراً فيما بيننا ، ولكننا نعتبره أفظع الجرائم ، ولا يسمح به إلا في الحرب وحدها ؛ لأن المرء في الحرب لا يقتل من أجل منفعة الشخصية ، بدافع من الحقد أو الحسد ، وإنما يفعل الجميع ما يطلبه منهم المجتمع ، وتخطيء على كل حال إذا اعتقدت أننا نموت في يسر ، ولو نظرت إلى وجوه الموتى ، فسوف ترى ذلك . إنهم يموتون في مشقة ، وفي عناء لا مصالحة فيه . »

وأنصت الشاب إلى هذا كله في دهشة من جنون أهل هذا الكوكب ، ومن العناء الذي يكابدونه من جراء طريقتهم في الحياة .

وكان يود أن يوجه مزيداً من الأسئلة ، ولكنه كان يعلم عن يقين أنه لن يفهم أبداً سياق هذه الأمور المظلمة المرعبة ، بل الواقع أنه لم يكن يريد أن يفهمها : فإما أن هذه المخلوقات التعسة تنتمي إلى نظام أدنى ، وأنها مازالت في غمرة الجهل بالإله وتتحكم فيها الشياطين ، أو أن نحساً فريداً أو خطأ شنيعاً يسود هذا النجم . وبدا له أن من المؤلم أشد الألم ، ومن

القسوة معاً أن يمضى فى مساءلة هذا الملك ، وإرغامه على الإدلاء بإجابات واعترافات لايمكن إلا أن تكون مريرة الإذلال : ذلك أن هؤلاء القوم الذين يعيشون فى خوف قاتم من الموت ، ومع ذلك يذبحون بعضهم بعضاً فى جماعات ، هؤلاء القوم الذين تتشع وجوههم بتلك الغلظة الوضيعة كما رآها مرتسمة على وجه الفلاح ، أو بمثل ذلك الأسى العميق الرهيب الذى شاهده على وجه الملك - هؤلاء القوم سببوا له عذاباً شديداً ، ومع ذلك ، يبدو عليهم فى طريقهم تلك المزعجة المخجلة - أنهم غاية فى الغرابة إلى درجة تكاد تكون فيها مضحكة ، مضحكة وحمقاء .

ولكنه لم يستطع أن يكتب سؤالاً واحداً : إذا كانت هذه النفوس التعسة مخلوقات متخلفة ، وأطفالاً معوقين ، وأبناء نجم منبوذ جاء فى غير أوانه ، وإذا كانت حياتهم كما تمر رعدة المتشنج ، وتنتهى بمذبحة ، وإذا كانوا يتركون موتاهم مطروحين فى الحقول ، أو ربما كانوا يأكلونهم - فقد كانت ثمة أقاويل عن هذا الموضوع فى بعض قصص الرعب التى تروى عن الأزمنة الغابرة - فلا بد أن يكون لديهم - مع هذا كله - تطلع إلى المستقبل ، حلم عن الإله ، شئ أشبه ببذرة الروح كامن فيهم ، وإلا كان هذا العالم كله الذى يخلو من الجمال غلطة لامعنى لها بكل تأكيد .

قال الشاب متردداً : « سامحنى أيها الملك - سامحنى إذا وجهت إليك سؤالاً آخر قبل أن أبغادر مملكتك المدهشة . »

قال الملك : « إذن ، هات سؤالك ، » فقد كان هذا الغريب بالنسبة إليه أشبه بالمفارقة ، وكان يبدو - فى كثير من الوجوه - روحاً مثقفة ناضجة ، ومستنيرة إلى درجة لا تقبل التصديق ، ولكنه كان من وجوه أخرى - أشبه بطفل صغير على المرء أن يسايره دون أن يأخذه مأخذ الجد الحق .

فقال الرسول : « أيها الملك الغريب ، لقد أثرت كوامن الحزن في نفسى جئت من بلد آخر ، وكان الطائر الكبير الذى هبط على سقف المعبد مصيباً فيما أخبرنى به : فهنا معك يوجد من البؤس مايزيد إلى مالا نهاية عما يمكن أن أتخيله ؟ إن حياتكم تبدو لى حلماً مربعاً ، ولا أدرى إن كان يحكمكم الإله أم تحكمكم الشياطين . لدينا أسطورة - أيها الملك - كنت أعتبرها حتى الآن خرافة لامعنى لها ، دخاناً فارغاً ، أسطورة تقول : إنه كان لدينا نحن أيضاً فى الزمن الغابر أشياء مثل الحرب والقتل واليأس ، هذه الكلمات المربعة التى أصبحت غير متداولة فى لغتنا منذ زمن بعيد ، يمكن أن توجد فى كتب الحكايات العتيقة ، وهى تبدو لنا الآن فظيعة ، بل مضحكة أيضاً إلى حد ما . واليوم عرفت أنها حقيقية كلها ، وهأنذا أرى أنك وشعبك تفعلون وتعانون أشياء لم أكن أعرفها إلا من حكايات الماضى المخيفة ، ولكن ، أخبرنى الآن : ألا يوجد فى نفوسكم وازع بأنكم تفعلون ما ليس بحق ؟ ألا تشاقون إلى إله مشرق عادل ، إلى الفهم ، إلى زعماء مرحين ، إلى مرشدين ؟ وفى الليل ، ألا تحلمون أبداً بحياة مختلفة أكثر جمالاً ، لا يريد فيها أحد شيئاً سوى الخير المشترك ، حيث يسود العقل والنظام ، وحيث يلتقى الناس الواحد بالآخر دائماً فى مرح وبشاشة ؟ ألم يخطر لكم أبداً أن العالم يمكن أن يكون كلاً واحداً ، وأنه قد يكون من النافع والشافع أن تعتمدوا على هذا التنبؤ ، وأن تجمعوا « الكل » وأن تخدموه فى حب ؟ ألا تعرفون شيئاً عما نسميه فى وطننا الموسيقى ، وخدمة الرب ، والنعمة الإلهية ؟ »

كان الملك قد نكس رأسه وهو يصغى إلى هذه الكلمات ، ولكنه رفعها الآن ، فبدا وجهه متحولاً ، مشرقاً بطيف ابتسامة ، وقد تجمدت فى عينيه الدموع .

قال الملك : « أيها الصبي الجميل ، أنا لا أدري حقاً إن كنت طفلاً أو رجلاً حكيماً ، أو ربما كنت كائناً خالداً ، ولكنني أستطيع أن أخبرك بأن هذه الأشياء جميعاً التي تحدثت عنها تسكن في أرواحنا ، ولدينا شعور مسبق يتطلع إلى السعادة إلى الإله ، ولدينا أسطورة تحكي عن رجل حكيم عاش في الزمن الغابر ، وأدرك وحدة العالم بوصفها الموسيقى المنسجمة التي تصدر عن الأجرام السماوية . أيجيب هذا عن سؤالك ؟ انظر أيها الفتى ، ربما كنت قديساً أتى إلينا من العالم الآخر ، فما من سعادة في قلبك ، أو قوة لإرادة لا يجاوبها شعور مسبق ، ظل بعيداً في قلوبنا نحن أيضاً .

وفجأة ، هب واقفاً ، فبان في طوله الكامل ، ونظر إليه الفتى مأخوذاً ؛ إذ غمرت وجه الملك في لحظة ابتسامة مشرقة باهرة كالتى الصباح .

صاح قائلاً للرسول : « اذهب الآن . اذهب الآن ودعنا لحروبنا وجرائمنا ! لقد جعلت قلبي واهناً ، وذكرتنى بأمرى ، كفاك ! كفاك هذا أيها الصبي العزيز الجميل ! اذهب الآن ، واهرب قبل أن تبدأ المعركة التالية ! سأفكر فيك عندما تسيل الدماء وتحترق المدن ، وسأفكر في العالم بوصفه كُلاً لا يستطيع أن يفصمنا عنه مانخشي على أعيننا من عمى وماجاشت به نفوسنا من غضب وقسوة . وداعاً ، واحمل تحياتي لنجمكم ، وتحياتي للإله الذى اتخذوا له رمزاً قلباً ينهشه طائر ! أنا أعرف جيداً هذا القلب وذلك الطائر .

واعلم يا صديقي الجميل القادم من بعيد : عندما تفكر في صديقك ، عندما تفكر في الملك المسكين المشتبك في الحرب ، لا تفكر فيه متربّعاً على أريكته ، غارقاً في التعاسة ، وإنما فكر فيه عندما هب واقفاً تملأ الدموع عينيه ، ويلطخ الدم يديه وهو مبتسم ! »

ورفع الملك ستر الخيمة بيده ، دون أن يوقظ خادمه ، وترك الغريب يرحل . وعاد الفتى مهرولاً على أعقابهِ مخترقاً السهل ، وقد استغرق في أفكار جديدة ، وفي غسق المساء لح عبر الأفق مدينة عظيمة اشتعلت ناراً ، فأخذ يتلمس سبيله فوق جثث الموتى وهياكل الجياد المتآكلة ، حتى هبط الظلام ، وكان قد بلغ حافة الغابة .

وهناك ، كان الطائر الكبير يهبط من خلال السحب ، فحمله فوق جناحيه ، وطار عائداً في هدأة الليل ساكناً ناعماً كما تطير البومة .

وعندما صبحا الفتى من نوم قلق ، وجد نفسه راقداً في المعبد الصغير القائم وسط الجبال ، وأمام المعبد وقف جواده فوق الحشائش المبتلة ، وهو يصهل في وجه الفجر . أما عن الطائر الكبير ، وعن رحلته إلى النجم الآخر، وعن الملك ، وعن ساحة القتال ، فلم يعد يتذكر شيئاً على الإطلاق ، ولم يتبق من هذا سوى ظل في روحه ، ووخزة غامضة من الألم كأنها هي وخزة شوكية ، أو على النحو الذي يجرح به التعاطف العاجز ، أو كما تعذبنا أحياناً في أحلامنا رغبة صغيرة لم نشبعها حتى نلتقى في نهاية الأمر بالشخص الذي تشوقنا طويلاً أن نبدي له حبنا ، وتشوقنا سراً أن تشاركه في أفراحه ، وتشوقنا سراً أن نرى ابتسامته .

وامتطى الرسول فرسه الذي سار به يوماً بأكمله حتى بلغ العاصمة ، ومثل بين يدي الملك ، وأثبت أنه الرسول الصحيح . ذلك أن الملك تلقاه بتحية كريمة بأن لمس جبهته قائلاً : « لقد تحدثت عيناك إلى قلبي ، فاستجاب قلبي ، وطلبك مجاب حتى قبل أن أسمع . »

وعندئذ تلقى الرسول ميثاقاً من الملك يعلن فيه أن زهور المملكة جميعاً

متاحة له ، وانضم إليه المرافقون والخدم ركباً ومرتجلين ، وظهرت الجياد والعربات ، وبعد أيام قلائل ، عندما سار في طريقه حول الجبال عائداً إلى بيته عبر الطريق الممهّد إلى مقاطعته ومدينته ، كانت تصحبه العربات والمركبات والسيارات ، والخيول والحمير ، تحمل كلها أجمل الزهور التي قطفت من حدائق الشمال وبساتينه ، وكانت تكفي تماماً لتكليل أجساد الموتى ، وتزيين مقابرهم ، كما تكفي لغرس زهرة للذكرى فوق كل لحد ، بل زرع أجمة بأكملها ، وشجرة فاكهة صغيرة كما تقضى بذلك التقاليد . وهنا فارقه الألم الذي لازمه من أجل صديقه ومهره الأثير ، وحلت مكانه ذكرى هادئة سعيدة ، بعد أن وضع فوقهما الأكاليل وأتم دفنهما ، وغرس فوق قبريهما زهرتين واجهتين ، وشجرتين من أشجار الفاكهة .

وبعد أن أدى واجباته على النحو الأكمل ، وخفّف عن قلبه العذاب ، شرعت ذكريات تلك الرحلة التي قام بها أثناء الليل تتحرك في نفسه ، فطلب من أهله الأقربين أن يتيحوا له يوماً يخلو فيه إلى نفسه . وهناك جلس تحت شجرة التأمل يوماً وليلة ، واستعرض أمام فكره الصور التي وقعت له في ذلك النجم الغريب - واضحة بلا غموض . وانتهى تأمله بأن اقترب من كبيرهم ذات يوم ، وطلب منه المحادثة ، وأخبره بكل شيء .

وأنصت الكبير جيداً لحديث الفتى ، وجلس مستغرقاً في التفكير ، وأخيراً سأله قائلاً : « رأيت هذا كله يا صديقي بعينيك ، أم كان مجرد حلم ؟ »

قال الفتى : « لست أدري ، وأعتقد في الواقع أن الأمر كله قد يكون حلماً ، وعلى كل حال ، اسمح لي أن أقول : إنه لا يكاد يوجد أى اختلاف لو أن هذه الأحداث عرضت في واقع الأمر لحواسي ؛ ذلك أن ظلاً من

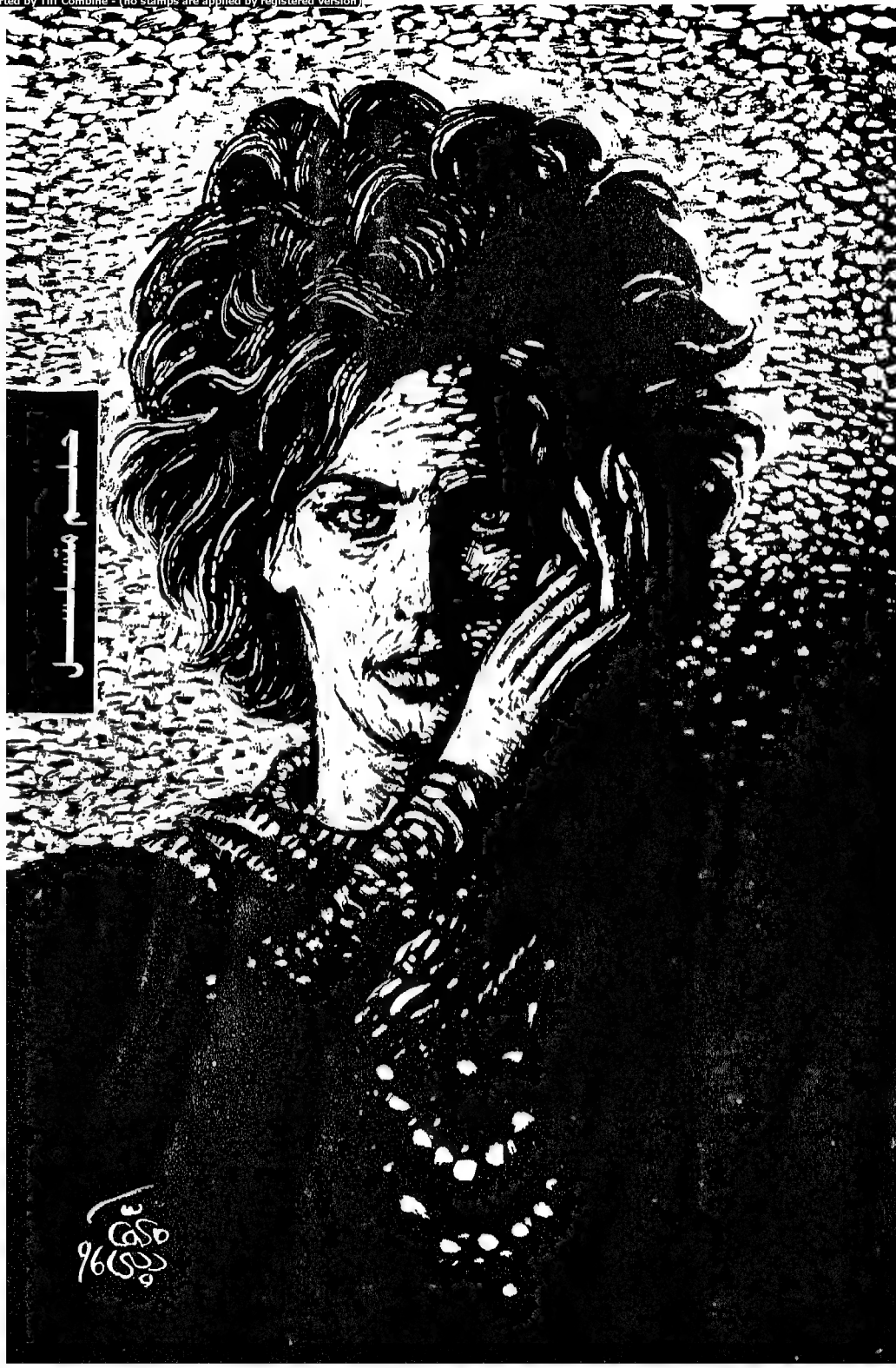
الأسى يلازمنى منذ ذلك الحين ، ووسط أفراح الحياة ، تهب عَلَى ريح باردة من ذلك النجم البعيد ، ولهذا أسالك ياسيدى المبجل : ماذا عَلَى أن أفعل؟»

قال كبيرهم : « عد غداً الى الجبال ، وإلى المكان الذى وجدت فيه المعبد . . إذ يبدو لي أن رمز ذلك الإله الذى لم أسمع به من قبل أبداً - يبدو غريباً عَلَى ، لعله يكون إلهاً من نجم آخر . ومن ناحية أخرى ، ربما كان المعبد وإلهه من القدم بحيث ينتميان إلى الحقب التى عاش فيها أسلافنا القدماء ، إلى تلك الأيام الغابرة التى قيل عنها : إننا كنا مازلنا نمتلك الأسلحة ، ونحيا في الرعب ، ونعيش في خوف من الموت . عد إلى ذلك المعبد ، يا صديقى ، وقدم قرباناً من الزهور والعسل والأغاني . »

وأعرب الفتى عن شكره ، واتبع توجيهات الرجل الكبير ، فأخذ حفنة من عسل مصفى من النوع الذى يقدم للضيوف الكبار في أول مهرجان للنحل في مطلع الربيع ، وصحب عوده معه . وفي الجبال عثر على المكان الذى اقتطف منه ذات مرة تلك الزهرة الزرقاء الشبيهة بالجرس ، كما وجد الجبل الصخري الشديد الانحدار ، والممر الذى سار فيه بحصانه خلال الغابات ، ولكنه لم يستطع أن يبتدى مرة أخرى إلى مكان المعبد ، أو إلى المعبد نفسه ، كما لم يجد الحجر الأسود الذى تقدم أمامه القرايين ، والأعمدة الخشبية والسقف ، والطائر الكبير الذى الذى حط عليه ، لم يجد شيئاً من هذا في يومه ، أو في اليوم التالى ، ولم يجد من يدلّه على ذلك المعبد كما وصفه .

ومن ثم عاد على أعقابهِ إلى وطنه ، وعندما بلغ محراب الذكرى الحبيبة ، دخله ، وقدم العسل قرباناً ، وأنشد أغنيته بمصاحبة عوده ، وأثنى على

«إله الذكرى الحبيبة» لأنه أوحى إليه بذلك الحلم الذى زاره ، وأشاد بالمعبد وبالطائر ، وبالفلاح المسكين ، وبالقتلى المطروحين فى ساحة المعركة ، وخاصة الملك فى خيمته الحربية . وبعد أن فرغ من هذا كله ، عاد إلى بيته منشرح الصدر ، وعلق على جدار غرفته رمز وحدة الآلام ، واسترد بالنوم العميق ما فقدته من عافيته فى تجارب الأيام الماضية . وفى الصباح التالى ، شرع فى تقديم العون إلى جيرانه ، الذين كانوا منهمكين فى حدايقهم وحقوقهم محاولين إزالة الآثار الأخيرة للزلزال ، وهم يغنون أثناء عملهم .



1
2
3
4
5
6
7
8
9
10

13
6550
96550

بدالى أننى
قضيت فعلاً
شطراً كبيراً من

حلم مسلسل

الزمن الخادع الضائع فى ذلك «الصالون» الخائى الذى يسطع على نوافذه الشمالية البحر الزائف . لم يكن يجتذب أو يسترعى انتباهى سوى حضور تلك السيدة الفاتنة المشبوهة التى اعتبرتها آثمة . كنت أشتاق - بلا جدوى - أن ألقى على محياها نظرة واحدة مشبعة ، ذلك المحيا الذى كان يطفو خافتاً وسط شعر فاحم مرسل وسحابة من الشحوب العذب لا أكثر . من المحتمل أن عينيها كانتا عسليتين ؛ فثمة سبب داخلى يدفعنى إلى هذا الافتراض ، ولكن ، إذا كان الأمر كذلك ، فإن عينيها فى هذه الحالة لن تنسجما مع الوجه الذى كنت أجتهد فى قراءته وسط ذلك الشحوب الغائم ، والذى كنت أعلم أن شكله يرقد مدفوناً فى المستويات العميقة التى لاسبيل إلى إدراكها بذاكرتى .

وأخيراً . . . حدث شئ . دخل الشابان ، فحيا كل منهما السيدة فى لباقة مصطنعة ، وتم تقديمهما لى . قلت لى : هذان قردان ، وتضايقت من نفسى ؛ لأن السترة الجميلة المفصلة على أحدث طراز بلونها البنى المائل إلى الاحمرار والتي يرتديها أحدهما ، ملأتنى خجلاً وحسداً .

شعور فظيع بالحسد لهذا المبتسم الذى لايعروه خجل أو ارتباك ، والذى لاتستطيع أن تجد فيه مايدعو إلى اللوم . وأمرت نفسى من الداخل قائلاً : «استجمع أشتات نفسك . تماسك ! » ومد كل منها يده لمصافحتى بغير اكتراث . . (لماذا مددتها لها ؟) . . وهما يرسمان على شفاههما ابتسامات هازئة .

وهنا أدركت أن ثمة خطأً فى مظهرى ، فأحسست ببرودة مزعجة تسرى فى أوصالى ، فأطرقت بنطرى إلى الأرض ، وعرانى الشحوب حين أبصرت أننى أرتدى جوربى ولكن بلا حذاء . هاهى ذى تعاودنى فى كل لحظة تلك الإحباطات الدنيئة ، التعسة ، الوضيعة ! فلم يحدث قط للآخرين أن يظهر عرايا أو نصف عرايا فى الصالونات أمام جماعة من الناس لاتجد فيهم عيباً ، ولاتأخذ عليهم مأخذاً ! من هذا الشعور بالخرى ، حاولت أن أدارى على الأقل قدمى اليسرى بقدمى اليمنى ، وفى أثناء هذه المحاولة حامت عيناى من خلال النافذة ، فشاهدت الصخور الجهمة المنحدوة بشدة فوق المحيط الأزرق تتهددنى بألوان زائفة مشثومة ، وبنية شيطانية ، فنظرت إلى الغريبين حائراً مستنجداً ، مفعماً بالحقد على هؤلاء القوم ، وممتلئاً بحقد أشد على نفسى ؛ فما من شىء يستقيم بالنسبة لى ، هذه هى المشكلة . ولماذا أشعر بأننى مسئول عن هذا البحر العفن ؟ حسن ، مادام هذا هو ماأشعر به إذن فقد « كنت » مسئولاً . وركزت بصرى على وجه الشاب ذى السترة البنية - الحمراء - متوسلاً . كانت وجنتاه تتألقان صحة ورونقاً ، وكنت أعرف جيداً أننى أعرض نفسى بلا هدف وأنه لن يتأثر بضراعتى . وفى هذه اللحظة ، لاحظ قدمى فى جوربها الخشن باللون الأخضر الداكن - آه ! ربما جمدت هذه النظرة لو أن الجورب كان خالياً من الثقوب ! -

فابتسم ابتسامة تنم عن الامتعاض ، فغمز لرفيقه ، وأشار إلى قدمي .
فابتسم الآخر مستهزئاً .

صحت ملوحاً بذراعي إلى النافذة : « انظر إلى البحر وحده » .

وهزّ الرجل ذو السترة البنية الحمراء كتفيه ، فلم يكن يخطر له أن يستدير ناحية النافذة ، ولا كان هذا يعنيه في شيء ، وقال للرجل الآخر شيئاً لم أفهمه إلا قليلاً ، ولكنني كنت المقصود به ، وكان متعلقاً بالأشخاص الذين يرتدون جوارب ولا ينبغي أن يسمح لهم بالوجود في مثل هذا الصالون . وفي أثناء استماعي ، اتخذت كلمة « صالون » مرة أخرى - كما كانت تتخذ في طفولتي - تلك النغمة شبه المغرية - شبه المبهرة - للامتياز الدنيوي .

وبدموع تكاد تطفز من عيني ، انحنيت لأرى إن كان ثمة شيء أستطيع أن أفعله لقدمي ، فأدركت أنها قد تحررتا من الخف المنزل ، فهناك على الأقل ، شاهدت الخف الناعم الأحمر الكبير الذي أستعمله في حجرة النوم راقداً ورائي على الأرض ، فتناولته بيدي في كثير من التردد ، وأمسكت به ، ما زال بي ميل شديد إلى الهكاء . وانزلق الخف بعيداً عني ، فالتقطته أثناء وقوعه - وفي هذه الأثناء تضخّم حجمه - وسرعان ما أمسكته بسبابة قدمي .

وفحاة ساورني شعور بارتياح داخلي ، وأدركت القيمة العظمى للخف الذي كان يهتز قليلاً في راحتي مائلاً إلى أسفل بسبب كعبه الثقيل . فأروع أن يملك الإنسان مثل هذا الخف الأحمر الرخو ، وأن يكون على هذه الدرجة من النعومة والثقل ! وطوّحت به - على سبيل التجربة - مرات فلائل في الهواء ، وكان هذا العمل لذيذاً ، غمرني بنشوة بلغت جذور شعري . هذا

شئ لا يمكن المقارنة بينه وبين أية لعبة أخرى . وهذه اللعبة التى كنت أعبها بخفى العظيم أطلقت عليها اسماً إيطاليا هو « كالزيجليون » .

وعندما سددت نحو رأس الفتىبنى - الأحمر ضربة أولى بالرأس بخفى (الكالزيجليون) ، هوى ذلك الشاب الذى لاعيب فيه مترنحا على الأريكة ، وهنا فقد الآخرون والحجرة وذلك البحر المخيف كل سيطرتهم على . كنت ضخماً قوياً ، وكنت حراً ، وفى الضربة الثانية التى تلقاها رأس الفتىبنى - الأحمر ، لم يعد هناك مجال للمنافسة ، ولم أعد فى حاجة إلى النزول إلى مستوى الدفاع عن النفس فى تصرفاتى ، وإنما مجرد الزهو ، واللجوء إلى نزوة الخيال الحر . كما أننى لم أعد أبغض خصمى المنهزم بحال من الأحوال ، بل كنت أجده جديراً بالاهتمام ، شيئاً نفيساً عزيزاً على نفسى ، فأنا - على كل حال - سيده ؛ ذلك أننى فى كل ضربة جيدة من خفى الغريب الغليظ ، كنت أشكل تلك الرأس البدائية الشبيهة برأس القرد ، وأصوغها ، وأكونها ، وفى كل « كبسة » بناءة كانت تزداد جاذبية ووسامة وصقلاً ، فأصبحت ألقى من صنعى شيئاً يرضينى وأحبه . وبضربة نهائية من حداد خبير ، فلطحت القفا المدبب بما فيه الكفاية ، فأصبح منتهياً فشكرنى ، وضرب على يدى ، فقلت ملوحاً له : « كل شئ على مايرام » ، فشبك ذراعيه فوق صدره ، وقال متذلاً : « اسمى بول . »

امتلاً صدرى بشعور رائع بالقوة ، شعور فرح له الفضاء المحيط بى ، وأما الحجرة - ولاداعى لتسميتها بعد الآن بالصالون - فقد انكشمت خزياً ، وزحفت بعيداً وهى خاوية . ووقفت إلى جوار البحر . كان البحر أزرق مشوباً بالسواد ، وكانت سحب صلبة تجثم على الجبال المعتمة ، كانت المياه القائمة ترغى وتزبد ، وعويل العاصفة يحوم فى دوائر ، مقبضاً مربعاً ،

ونظرت إلى أعلى ، ورفعت يدي إشارة بأن العاصفة تستطيع أن تبدأ .
 *وانفجر من الزرقة سهم من البرق الساطع ومن البرد ، وهبط إعصار أهوج
 دافئ مزججراً ، وتدفقت أشكال رمادية صاخبة متفرقة من السماء كأنها المرمز
 ذو العروق . وارتفعت أمواج مذعورة من البحر المعذب ، وكانت العاصفة
 تمزق الرذاذ المتطاير من قممها ومن مكانس الزبد اللاسعة ، وتسفعها في
 وجهي . وفتحت الجبال السود المخدرة عيوناً واسعة مليئة بالرعب ، وكانت
 انتفاضاتها الصامتة تترن كأنها تضرع .

ووسط هذه الهجمة الجلييلة للعاصفة التي امتطت جياداً عملاقة
 شبحية ، تحدث إلى على مقربة مني ، صوت خجول . آه ! أنا لم أتناسك
 أيتها السيدة الشاحبة ذات الشعر الفاحم الطويل ! فأنحيت لها ، وتحدثت
 إلى بلهجة طفولية : البحر قادم ، ولا ينبغي أن يمكث المرء هنا . تأثرت ،
 وواصلت النظر إلى الخاطئة الرقيقة ، كان وجهها شاحباً شحوباً وديعاً وسط
 غسق شعرها الذي يحاصره . وكانت أمواج التأنيب قد أخذت فعلاً تضرب
 ركبتى وصدرى ، وجعلت الخاطئة تطفو بلا حول ولا طول ، صامتة فوق
 المياه الآخذة في الارتفاع . ضحكت قليلاً ، ووضعت ذراعى تحت ركبتى ،
 ورفعتها إلى ، وكانت هذه الحركة أيضاً جميلة محرة ، وكانت المرأة خفيفة
 نحيفة بصورة تدعو إلى الدهشة ومثلثة بدفء غض ، وكانت عيناها
 صادقتين ، تشيع فيها الثقة بالآخرين ، ولكنها كانت منزوعة ، ورأيت أنها
 لم تكن خاطئة على الإطلاق ، كما أنها لم تكن سيدة متباعدة مستعصية على
 الفهم : لاختايا ، ولا غموض ، كانت مجرد طفلة .

وخرجت بها من الأمواج ، وحملتها عبر الصخور ، وخلال المتنزه الحزين
 الذى وشحه المطر بالسواد هناك ، حيث لا يستطيع العاصفة أن تدركنا ،

وحيث يتحدث إلينا من تيجان الأشجار العتيقة المنحنية الجمال الإنسانى العذب البسيط ، القصائد الرائعة ، والسمفونيات ، عالم من الإيحاءات النبيلة ، ومتع ساخرة متحضرة ، وشجيرات فاتنة رسمها «كورو» ، وموسيقا «شوبرت» الريفية النبيلة ، التى وضعها لآلات النفخ الخشبية ، والتى أغوتنى إغواءً مأكراً لزيارة المعبد المحبوب فى فورة وقتية من فورات الحنين ، ولكن عبثاً كان للعالم أصواته المتعددة ، وللروح ساعاتها ولحظاتها لكل شىء .

ويعلم الله كيف رحلت الخاطئة ، المرأة الشاحبة ، الطفلة ، واختفت عن عنى . كان هناك منفذ يودى إلى الخارج عبر سلالم ضخمية ، وكانت هناك بوابة المدخل ، وكان الخدم حاضرين ، وكان كل شىء معتماً غائماً كأنها يقع خلف زجاج شبه شفاف . . . بل هناك أشياء أكثر من ذلك شبيهة وغياماً ، أجسام تنفخها الريح ، وانبعثت نغمة من اللوم والتأنيب موجهة ضدى مما أثار سخطى على عاصفة الظلال . اختفى كل شىء فيما عدا شكل «بول» صديقى وابنى «بول» ، وكانت ملاحظته تكشف وتخفى فى آن واحد وجهها لا اسم له ، ومع ذلك فهو مألوف لى إلى مالا نهاية ، وجه زميلة من زميلات المدرسة ، وجهها أزلياً أسطورياً لمرضة ، يتكون من شبه الذكريات الحسنة القوية لتلك الأعوام المبكرة الخرافية .

الظلمة الطيبة التى تجلب العزاء للقلب ، المهد الدافئ للروح وللوطن الضائع . يفتح أمامى ، زمان الوجود الذى لم يتخلق بعد ، الارتعاشات الأولى غير الواثقة فوق مصدر النبع ، حيث تنام تحتها الأزمنة القديمة بأحلامها عن الغابات الاستوائية ، تحسسى طريقك أيتها الروح ، تجولى ، ولا تكفى عن التجول ، غوصى عشوائية فى حمام الشهوات البريئة من الإثم !

أنا أعرفك ، أيتها الروح الجبان ، لاشيء ألزم لك ، لاشيء أفضل لك من الطعام والشراب والنوم سوى الرجوع إلى البدايات . فهناك تهدر الأمواج حولك ، فتصبحين موجة ، وترسل الغابة حفيفها فتكونين غابة . لوجود الخارج عنك ، أو داخل فيك . أنت تطيرين .. كطائر في الهواء ، وتسبحين كسمكة في الماء ، وتتنفسين في الضياء ، فأنت ضياء ، وتتذوقين الظلمة فأنت ظلام . نحن نتجول - أيتها الروح - ونحن نسبح ونطير ونبتسم ، وبأنامل شبحية رقيقة نربط من جديد الخيوط الممزقة ونوحد مغتبطين الهارمونيات المنفصلة ، ولم نعد نريد العالم ؛ لأننا العالم . نحن نقتل ونموت مع الآخرين ، نحن نخلق ونُبعث بأحلامنا . وأروع أحلامنا هي السماء الزرقاء ، وأروع أحلامنا هو البحر ، وأروع أحلامنا هي السماء المرصعة بالنجوم ، وهي الأسماك ، وهو النور الساطع السعيد ، والأصوات المشرقة السعيدة . كل شيء هو حلمنا ، وكل شيء هو أروع أحلامنا . لقد متنا وأصبحنا تراباً ، وقد اكتشفنا الضحك من فورنا ، ورتبنا صورة الأفلاك .

والأصوات تتجاوب ، وكل صوت فيها هو صوت أمانا . وينبعث الحفيف من الشجر ، وكل شجرة منها تبعث حفيفها فوق مهدنا . وتتفرق السبل على هيئة نجم ، وكل سبيل منها يؤدي إلى الوطن . وذلك الشخص الذي سمى نفسه « بول » مخلوقي وصديقي ، كان هناك مرة أخرى ، وكان قد بلغ من الكبر مابلغته .

إنه يشبه صديقاً من أصدقاء الصبا ، ولكنني لا أدرى من يكون ذلك الصديق ؛ ومن ثم كنت أجد شيئاً من الحرج معه ، وأظهر له صداً معيناً من

المجاملة . ومن هذا استمدّ قوّته . لم يعد العالم يطيعنى ، بل كان يطيعه ؛
ومن ثم فإن كل ماقد سبق اختفى وانهار بلا احتمال .

كنا فى ميدان ، وكان المكان يدعى باريس ، وقد انتصبت أمامى رافعة
حديدية تطاول السماء ، كانت عبارة عن سلم ، وعلى كلا جانبيه تدلت
حلقات حديدية صغيرة يستطيع المرء أن يقبض عليها بيديه ، كما يستطيع
أن يتسلقها بقدميه . ولما كان « بول » يريد ذلك ، فقد كنت أول من
تسلق ، وهو بجانبى فى سلم مماثل . وحين تسلقنا بها يحاذى منزلاً مرتفعاً ،
أوشجرة شديدة العلو ، بدأت أشعر بالفزع ، فرفعت بصرى إلى « بول » ولم
يكن يشعر بالخوف ، ولكنه أحس بخوفى فابتسم .

وفى زمن لايزيد عن لحظة ، تنفس بمقدار ما ابتسم ، ونظرت إليه ،
كنت قد اقتربت اقتراباً شديداً من التعرف على وجهه ، وتذكر اسمه ، وأيام
الدراسة ، عندما كنت فى الثانية عشرة من عمري ، أُنجد مراحل العمر ،
عندما كان كل شىء زاخراً بالعطر ، حافلاً بالأنس ، مخفوفاً برائحة الخير
الطازج ، وبألقى المغامرة - كان المسيح فى الثانية عشرة من عمره عندما فضح
الكتبة فى المعبد - ونحن أيضاً عندما كنا فى الثانية عشرة فضحنا كتبتنا
ومعلمينا ، وكنا أذكى منهم ، وأكبر موهبة ، وأشجع . وتدافعت
الذكريات والصور فى ذهنى : الكتب المدرسية المنسية ، الحجز ساعة
الغذاء ، طائر قتله بمقلع ، جيب فى سترتى حشوته بهرقوق مسروق لزج ،
طرطشات وحشية صبيانية فى حمام السباحة ، سراويل الأحد الممزقة وألوان
من تأنيب الضمير ، صلوات حارة أثناء الليل لحل المشكلات الأرضية ،
مشاعر بطولية رائدة عن الجلال عن مطالعة أشعار لشريلر

لم تكن سوى ومضة برق لم تستغرق إلا ثانية واحدة ، سلسلة من الصور

المشرعة بغير بؤرة . وفى اللحظة التالية كان وجه « بول » يحملق فى مرة أخرى ، فلا أكاد أتبينه إلا فى عناء شديد ، لم أعد على يقين من سننى ، ومن المحتمل أننا كنا صبييناً ، وهناك تحت الحلقات الضيقة لسلمنا امتدت - أبعد فأبعد - كتلة الشوارع التى تسمى « باريس » ولكن ، عندما كنا أعلى من أى برج ، انتهى أمر رافعاتنا الحديدية ؛ إذ كان يعلوها لوح أفقى عبارة عن رصيف مصغر ، وكان يبدو من المحال الوقوف على هذه الألواح ، غير أن «بول» استطاع أن يفعل ذلك فى شىء من الإهمال ، وكان على أن أفعل ذلك أيضاً .

فما إن بلغت أعلى مكان حتى طرحت نفسى مستوية على اللوح ، ونظرت إلى أسفل الحافة وكأننى أنظر من سحابة شاهقة صغيرة ، وهبطت نظرتى كالحجر فى الفراغ دون أن تجد هدفاً . وهنا أشار رفيقى بيده ، فوجدت نفسى مفتوناً بمنظر بديع يحوم فى منتصف الهواء ، وهناك ، فوق شارع عريض بمستوى الأسقف العليا وإن يكن أسفل منا بكثير ، شاهدت جماعة تيدو عليها ملامح الأجانب ، كان يبدو أنها مجموعة من الراقصين فوق الأسلاك ، وفعلاً رأيت واحداً منهم يجرى جيئة وذهاباً فوق سلك أو قضيب ، ثم اكتشفت أن هناك عدداً كبيراً منهم ، أغلبهم من الفتيات الصغيرات ، وخيل إلى أنهن من العجر أو من القبائل الرحل . وكانوا يسرون ، ثم يتمددون ، ويجلسون ، ويتحركون على ارتفاع الأسقف فوق إطار هوائى لأقل السقالات سمكاً ، وبين قطبين أشبه بالتريشة أو المظلة ، وكانوا يعيشون فى تلك الأماكن ، ويشعرون فى تلك المنطقة بأنهم فى بيوتهم وأما الشارع الممتد تحتهم ، فلا يستطيع المرء إلا أن يتخيله ؛ إذ كانت دوامة من الضباب الرقيق تمتد من الأرض حتى توشك أن تلامس أقدامهم .

وأبدى « بول » ملحوظة . فأجبتة قائلاً : « أجل ، إنه لشيء مؤثر ، كل هؤلاء الفتيات . »

والحق أنني كنت في مكان أعلى منهم كثيراً ، ولكنني كنت متمسكاً بموقعي ، على حين أنهم كن يتحركن بخفة وبلا خوف ، ورأيت أنني على علو شاهق ، وأنني في مكان خاطيء . أما هن فكن في الارتفاع السليم ، ومع ذلك لم يكن على ذلك العلو الشيطاني وعلى ذلك البعد الذي كنت فيه ، ولم تكن الفتيات وسط الناس ، ولكن لم يكن منعزلات تماماً ، وفضلاً عن ذلك ، كان هناك عدد كبير منهم ، ورأيت جيداً أنهم يمثلن نعمة لم أحصل عليها بعد .

كنت أعرف أنني سوف أهبط من هذا السلم البشع ، وكان مجرد التفكير فيه يبعث الانقباض في نفسي إلى درجة الغثيان ، ولم أعد أطيع البقاء لحظة واحدة بعد ذلك ، وأخذت أتسلسل متفضلاً من الدوار موقع قدمي على حلقات السلم - ذلك أنني لم أكن أستطيع أن أراها من اللوحة - وهكذا ظللت معلقاً بضغ دقائق على ذلك الارتفاع الرهيب وأنا أناضل متشنجاً ، ولم يساعدني أحد ، فقد ذهب « بول » .

وفي رعب مهين ، جعلت أنخبط بقدمي ويدي ، واستولى على شعور أشبه بالضباب ، شعور بأنه ليس السلم الشاهق أو الدوار هو ما ينبغي على أن أحتمله بالتهام والكمال ، ذلك أنني فقدت على الفور رؤية الأشياء وشكلها ؛ إذ تحول كل شيء إلى حيرة واضطراب . وفي لحظة كنت لا أزال معلقاً من الحلقات مع ذلك الشعور بالدوار ، وفي اللحظة التالية كنت أزحف ، ضئيلاً مذعوراً ، خلال عمرات ودهاليز ضيقة تمتد تحت الأرض ، ثم أخوض بعد ذلك في أوحال وروث ، شاعراً بالمخاط القذر يصعد حتى

يبلغ فمى . كانت الظلمات والعوائق فى كل مكان . واجبات رهية ذات مغزى فاجع ، ولكنها مسترة : خوف وعرق ، شلل وبرد ، موت عسر ، وولادة عسرة !

ياله من ليل يحيط بنا بلا حدود ! وما أكثر دروب العذاب التى نسلكها ، ونغوص فى أغوار كهف الروح المليئة بالحصى ، بكل المعاناة الأبدية . ! ولكننا نواصل السير ، نحنى هاماتنا ، ونخوض الأوحال ، ونسبح ، ونختنق فى النفايات ، ونزحف على جدران ملساء مهلكة ، ونبكى ، ويتتابنا اليأس ، ونصرخ فزعاً ، ونصيح ألماً ، ولكننا نواصل المسير ، ونمضى على الدرب ، ونتعذب ، ثم نستأنف السير ، ونشق طريقنا بأظافرنا وأنيابنا .

ومن تلك الأبخرة الجحيمية الحامية عادت الرؤية مرة أخرى ، وتكشف شريط قصير من الممر المظلم لنور الذاكرة الذى يحدد شكل الأشياء ، وشقت الروح طريقها خارجة من العالم البدائى إلى الدائرة المألوفة للزمان المعروف .

أين كان هذا ؟ الأشياء المألوفة تحملق فى وجهى ، وأنا أتنفس جواً أعرفه . هذه حجرة واسعة تسبح فى عتمة خفيفة ، وهذا مصباح يضاء بالغاز فوق المنضدة ، إنه مصباحى ، والمنضدة كبيرة مستديرة أشبه بالبيانو . وكانت أختى تقف فيها ، وزوجها ، ربما قدما للزيارة ، وأولعي كنت معها . كانا صامتين منزعجين ، يديان قلقاً شديداً على وكنت أقف فى الحجرة الرحبة المعتمدة ، أذرعها جيئة وذهاباً ، أقف ثم أمشى ثانية تغشاني سحابة من الحزن ، طوفان من الحزن المرير الخائق . وشرعت أبحث عن شىء ، عن أى شىء لا أهمية له : كتاب ، مقص ، شىء من هذا القبيل ،

ولكنى لاأستطيع أن أعثر عليه . وأمسكت بالمصباح فى يدى . . كان ثقيلًا ، وكنت فى غاية من الإرهاق ، فلم ألبث أن وضعته ، ثم تناولته مرة أخرى ، وأردت أن أواصل البحث ، وإن كنت أعلم أنه غير مجد ، فلن أجد شيئاً ، بل سأزيد من الاضطرابات فى كل مكان ، وربما سقط المصباح من يدى ، فقد كان ثقيلًا إلى درجة الإيلام ، ومن ثم سأضطر إلى تحسبس طريقى ، وإلى البحث والتجول فى الغرفة طيلة حياتى البائسة .

ونظر إلى زوج شقيقتى قلقاً وفى نظرتة شىء من العتاب . كانا يريان أننى على حافة الجنون ، ففكرت على الفور ، والتقطت المصباح مرة أخرى ، وأقبلت على أختى صامثة وبعينين ضارعتين ، مفعمتين بالخوف والحب ، حتى أحسست بأن قلبى سينفطر . ولم أستطع أن أقول شيئاً ، كل ماكان فى وسعى هو أن أبسط يدى وألوح لها بإشارة أطلب منها أن تبتعد عني ، وفكرت : اتركينى وحدى ! هذا كل ما فى الأمر . . اتركينى وحدى ! لايمكن أن تعرفى ماأشعر به ، وماأعانيه ، وماأفزع ماأعانيه ! ثم رددت ثانية : اتركينى وشأنى ! اتركينى وشأنى ! .

ملاً ضوء المصباح الأحمر الحجرة الواسعة ، وفى الخارج كانت الأشجار تزجر بفعل الريح . وخيل لى لحظة واحدة أن لدى أعماق رؤية باطنية وإحساس بالليل فى الخارج : رياح ورطوبة الخريف ، رائحة أوراق الشجر، حفيف الأوراق المنبعث من شجرة الدردار ، الخريف ، الخريف ! وعادنى مرة أخرى لبرهة ذلك الإحساس بأننى لست نفسى ، وإنها كنت أرى نفسى كما أرى صورة : كنت موسيقياً شاحباً هزياً ذا عينين وامضتين اسمه « هوجر فولف » ، وفى هذا المساء كنت فى عملية التحول إلى الجنون .

وفي هذه الأثناء ، كان على أن أواصل البحث دون أمل ، وأن أرفع المصباح الثقيل لأضعه على المائدة ، على المقعد ، على خزانة الكتب . وكان على أن أدافع عن نفسي بحركات ضارعة عندما نظرت إلى أختي مرة أخرى حزينة مهمومة ، تريد أن تواسيني ، وأن تكون على مقربة مني ، وأن تساعدني . وجعل الأسى الكامن في نفسي ينمو ويملأني حتى بلغ نقطة الانفجار ، وكانت الصور المحيطة بي ذات طبيعة طاغية ، أوضح كثيراً من الواقع المألوف ، وزهور خريفية في آنية ، وتحتها مفرش بنى قاتم يميل إلى الاحمرار ، تتوهج بوحدة جميلة أليمة ، وكل شيء ، حتى قاعدة المصباح النحاسية اللامعة ، كان يتميز بجمال ساحر ، وينعزل ، كما هي الحال في لوحات كبار المصورين .

أبصرتُ قدرى في وضوح ، نظرة أخرى من أختي ، لمحة أخرى من الزهور ، الزهور الفاتنة المفعمة بالروح - وسيأتي الطوفان ، وسأغوص في بحر الجنون ، دعيني ! أنت لاتفهمين ! وعلى الجانب اللامع من البيانو ، انعكس شعاع من ضوء المصباح على الخشب الأسود ، فبدأ غاية في الفتنة والغموض والكآبة ! .

وهنا ، نهضت أختي مرة أخرى ، واتجهت صوب البيانو ، وأردت أن أتوسل معها ، أردت أن أمنعها بقدرتي الذهنية ، ولكنني لم أستطع ، ذلك أن قوتي لم تكن تنتقل إليها من وحدتي ، وعرفت على وجه اليقين ماسيحدث بعد ذلك ، كنت أعرف اللحن الذي سيجد صوته حتماً في هذه اللحظة ، قائلاً كل شيء ، محطماً كل شيء . ثمة توتر وحشى يعتصر قلبي ، وبينما طفرت من عيني الدموع المحرقة الأولى ألقيت برأسى ويدي على

المائدة ، وأصغيت مستغرقاً بكل حواسي ، بل بحواس جديدة أضيفت إلى
الكلمات واللحن في الحال ، لحن فولف وهذه الأشعار :

ماذا تعرفين ، يا أعالى الأشجار المظلمة ،

عن جمال الأزمنة القديمة ؟

أرض الوطن الممتدة عبر الجبال ،

ما أبعدك عنا الآن ! ما أبعدك !

وعند هذا ، وأمام عيني ، وفي داخلي ، انزلق العالم منفصلاً ، فابتلعت
الدموع والأنغام ، وكان من المحال التعبير عن السيولة ، وعن التيار
الجارف ، وعن السباحة والألم ! أيتها الدموع ، أيتها الأنهار العذبة ، أيها
الدويان السعيد ! إن كتب العالم جميعاً الزاخرة بالأفكار والأشعار ليست
شيئاً بالقياس إلى لحظة واحدة من البكاء عندما يفيض الشعور في موجات ،
وحين تدرك الروح ، وتجد نفسها في الأعماق . إن الدموع هي جليد الروح
المذاب ، والملائكة جميعاً قرييون من الشخص الذي يبكي .

وظفقت أبكى ، متناسياً العلل والأسباب جميعاً وأنا أهبط من أعلى
التوتر الذي لا يحتمل إلى الغسق اللطيف الذي يكتنف المشاعر العادية ، بلا
أفكار ، وبلا شهود . وفيما بين ذلك ، رأيت الصور : نعش يرقد فيه
شخص عزيز على جداً ، وهام بالنسبة لي ، ولكنني لا أعرف من هو .
وخطر لي أنه ربما كان أنت نفسك ، ثم لاح لي منظر آخر من المسافة البعيدة
الشاحبة . ألم أشاهد منذ أعوام خلت أو في حياة مبكرة منظرأً بديعاً : جماعة
من الفتيات الصغيرات يعشن عالياً في الهواء ، أشبه بالسحب وبلا وزن ،

فاتنات هائثات ، تطفو كل منهن خفيفة فى الهواء ، ثرية كالموسيقا
الوترية؟.

وتلاحقت الأعوام سراعاً فيما بين ذلك ، تدفعنى فى لطف ، ولكن فى
غير قدرة منى على المقاومة - بعيداً عن الصورة . وأأسفاه ! ربما لم يكن
لحياتى كلها سوى هذا المعنى ، أن أرى هذه الفتيات الجميلات المحمومات
فى الهواء ، وأن أقترّب منهن ، وأن أصبح مثلهن ! والآن ، اختفن جميعاً فى
الأفق البعيد ، فلا سبيل إلى اللحاق بهن أو فهمهن ، أو تحريرهن ،
تحاصرن الشهوة المتملقة واليأس المكدود .

وانسابت الأيام كما تتثال نتف الجليد ، وتغير العالم . كنت أتجول حزيناً
متجهاً صوب منزل صغير ، وأحسست بالتعاسة ، وشغلنى إحساس مندر
فى فمى ، فأخذت أحرك لسانى محاذراً حول إحدى أسنانى الفاسدة ،
فانخلعت فى الحال ، وسقطت على الأرض ، ولحقت بها السن التالية ، هى
أيضاً ! وكان هناك طبيب فى مطلع الشباب ، فتوسلت إليه ماسكاً بسن
منهما بين إصبعى محاولاً إقناعه . ضحك فى مرج ، وصرفنى بنظرة محترفة
قاتلة ، وهز رأسه الصغير ، هذا كله لايمنى شيئاً ، ولاضرر فيه على
الإطلاق ، ويحدث كل يوم . يا إلهى العزيز ! بهذا حدثت نفسى . ولكنه
واصل حديثه ، وأشار إلى ركبتى اليسرى : هنا ممكن العلة ، هذا شىء
مختلف تماماً وليس موضوعاً للدعابة . وبسرعة يشيع فيها الاضطراب ،
جثوت على ركبتى ، وهنا أبصرت كل شىء ! كان هناك ثقب أستطيع أن
أدس فيه إصبعى ، وبدلاً من الجلد واللحم لم يكن ثمة ما أشعر به سوى
كتلة ناعمة إسفنجية لاحتسائية فيها ، خفيفة وليفيه أشبه بباداة النباتات
الذابلة . يا إلهى ! هذا هو التحلل ! هذا هو الموت والانحلال ! فسألت فى

مودة كانت عسيرة على نفسى « إذن ، فليس هناك مايمكن صنعه ؟ » قال الطبيب : « لاشيء أكثر من ذلك » واختفى

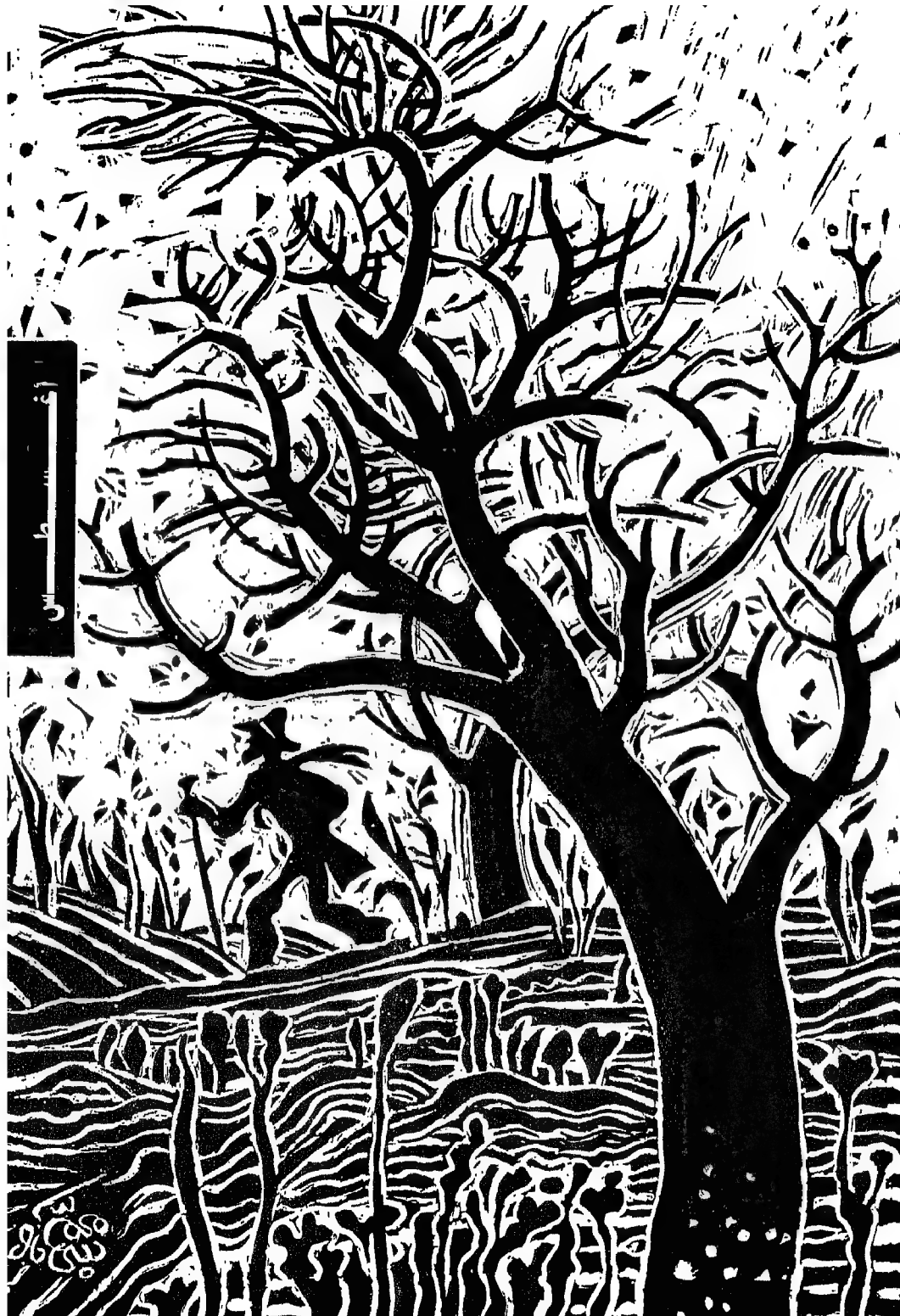
سرت - وأنا فى حالة شديدة من الإرهاق - صوب المنزل الصغير ، ولكننى لم أكن قانطاً كما ينبغى أن أكون حقاً ، بل الواقع أننى كدت أكون لامبالياً . والآن ، يجب علىّ أن أدخل البيت الصغير حيث تنتظرنى أمى ، ألم أسمع صوتها فعلاً ، وأرى وجهها ؟ درجات السلم تقود إلى أعلى ، درجات مجنونة ، مرتفعة وناعمة دون درابزين ، كل منها جبل ، كل منها قمة ، ثلاثة . كان الوقت متأخراً جداً بكل تأكيد . . . ولعلها رحلت فعلاً ، وربما قضت نحبها فعلاً ! ألم أسمعها تنادىنى مرة أخرى ؟ كافحت صامتاً درجات السلم الجبلية الوعرة ، أسقط وأصطدم ، متوحشاً مجهشاً بالبكاء ، تسلقت متوتر الأعصاب ، مستنداً إلى نفسى بذراعين خاذلتين ، وركبتين مرتعشتين ، أصبحت الآن فى أعلى السلم ، عند البوابة ، وعادت الدرجات صغيرة مرة أخرى ، جميلة ، يحيط بها إطار خشبى . وكانت كل خطوة من خطواتى متعثرة ثقيلة ، وكأننى أخوض فى أوحال وصمغ لأستطيع انتزاع نفسى . وكانت البوابة مفتوحة على مصراعيها ، وفى الداخل ، كانت أمى تسير مرتدية ثوباً رمادياً ، وتحمل سلة صغيرة على ذراعها ، صامتة مستغرقة فى التفكير . آه ! بالشعرها الفاحم الذى وخطه الشيب قليلاً فى الشبكة الصغيرة ! مشيتها ، وقوامها الضئيل ! والثوب ، الثوب الرمادى ! هل ضاعت صورتها منى تماماً بعد كل هذه الأعوام الكثيرة . ألم أفكر فيها على الإطلاق حقاً ؟ هاهى ذى أمام عيني ، تقف هناك وتمشى ، لا أراها إلا من الخلف ، كما كانت بالضبط ، واضحة تماماً وجميلة ، إنه الحب الخالص ، والأفكار الخالصة عن الحب ! .

وفى حلق بالغ ، خضت خلال الهواء اللزج بمشية مشلولة ، وكانت
خيوط النباتات المتسلقة تلتف حولى كجبال رفيعة قوية تشد وثاقى ، عوائق
خبيثة فى كل مكان . لاسبيل إلى المضى فى طريقى ! صرخت : « أمى ! »
ولكننى لم أجد لى صوتاً ! ولم يخرج من فمى صوت ! كان هناك حاجز من
زجاج يحول بينى وبينها .

وسارت أمى متدة دون أن تنظر خلفها ، مستغرقة فى صمت فى أفكار
جميلة حببية تنفض عن ثوبها بيدها المألوفة خيطاً غير مرئى ، وتنحنى على
سلتها الصغيرة التى تضم أدوات الحياكة . آه ! تلك السلة الصغيرة ! لقد
أخفت عنى فيها ذات مرة بيضة عيد الفصح ، صرخت يائساً ، ولكن بلا
صوت . عدوت دون أن أنتقل من موضعى ! استهلكنى الحنان والغضب
معاً .

وسارت متمهلة خلال البيت الصيفى ، ووقفت فى الطريق المفتوح
المودى إلى البوابة على الجانب الآخر ، إلى الخارج . تركت رأسها يميل قليلاً
إلى أحد الجانبين ، منصته فى لطف ، مستغرقة فى الأفكار ، وهى ترفع
السلة الصغيرة وتخفضها ، وتذكرت شريطاً من الورق عثرت عليه وأنا صبى
فى سلتها للحياكة ، كتبت عليه بخطها الجميل ماتعزم القيام به ذلك اليوم
وماتريد أن تعنى به : « سراويل هرمان استهلكت تماماً - إعداد الغسيل -
استعارة كتاب لوى كانز - هرمان لم يؤد صلواته أمس . » أنهار من
الذكريات وشحنات من الحب ! .

ووقفت على البوابة ، مُقَيَّدًا مغلولاً ، وعبر البوابة كانت المرأة ذات الرداء
الرمادى تمضى بعيداً فى بطاء ، إلى الحديقة ، ولم تلبث أن اختفت .



أغسطس

كانت تقيم في
شارع «موساكر»
امرأة في ريعان

الصبا ، فقدت زوجها إثر حادث أليم ولم يمض على زواجها غير وقت قصير . وها هي ذى قابعة في حجرها الضيقة ، فقيرة مهجورة ، تنتظر طفلها الذى قدر له أن يولد يتيمًا . ولما كانت تعاني وحدة لا يؤنسها فيها أى شىء ، استقرت خواطرها دون انقطاع على الطفل المنتظر ، فلم تدع شيئًا جميلًا رائعًا مرغوبًا فيه دون أن تتمناه وتتطلع إليه ، وتحلم به لطفلها الصغير ، فلم يكن يليق به أقل من قصر كبير مشيد بالحجارة ، له نوافذ كبيرة من البللور ، تحيط به حديقة تتوسطها نافورة . أما بالنسبة لمهنته ، فكان لابد أن يكون على الأقل أستاذًا في الجامعة أو ملكًا

وكان يجاور السيدة «اليزابيث» عجوز طاعن في السن ، أشيب الشعر ، ضئيل الجسم ، لا يبرح منزله إلا أحيانًا ، فإذا راق له أن يفعل ذلك ، وضع على رأسه قلنسوة تتدلى منها شرابة ، وحمل مظلة خضراء عفى عليها الدهر ، صنعت أسلاكها من عظام الحوت ، وكان الأطفال يخشونه ، والكبار يتهامسون فيها بينهم بأنه لابد أن تكون له أسبابه القوية التى تدفعه إلى حياة العزلة التى يحياها ، وكانت تنقضى فترات طويلة لا يكاد يشاهده فيها أحد ،

إلا أنه قد يحدث أحيانا في إحدى الأمسيات أن تنبعث من منزله الصغير الحزن موسيقا رقيقة كأنها تخرج من عدد كبير من الآلات الدقيقة المرفهة .
وحينئذ كان الأطفال العابرون يسألون أمهاتهم : أهى ملائكة تلك التى تنشد فى الداخل ، أم تراها جنيات ؟ غير أن أمهاتهم كن يجهلن كل شىء عن هذا الأمر ، فيقلن : « كلا . . كلا ، إنه لابد أن يكون صندوقا موسيقيا . »

هذا الرجل الضئيل الذى كان يعرفه جيرانه باسم « السيد بنسفاجر » ، كانت تربطه بالسيدة « اليزابيث » صداقة من نوع غريب . والواقع أن أحدهما لم يكن يتحدث إلى الآخر أبدا ، ولكن الشيخ العجوز كان ينحنى انحناءة مليئة بالود كلما عبر نافذتها ، وكانت ترد عليه بإطراقة من رأسها فى عرفان بالجميل ، وفى كثير من المبل إليه . وكان كل منهما يحدث نفسه قائلا : « لو أن الأمور ساءت بالنسبة إلى ، فسوف أذهب بكل تأكيد لطلب المعونة من منزل جارى » فإذا هبط الظلام جلست السيدة « اليزابيث » وحيدة إلى نافذتها ، يعاودها الأسى على زوجها الراحل المحبوب ، أو ربما فكرت فى طفلها المرتقب ، فراودتها الأحلام ، فلا يلبث جارها العجوز أن يفتح نافذته متلطفًا ؛ لتنتقل من حجرته المعتمة أنغام باعمة مريحة فضية مثل نور القمر حين يتسلل بين السحب . أما السيدة « اليزابيث » فكانت تتعهد من جانبها بضعة من نباتات الحيرانيوم القديمة تسلق نافذته الخلفية ، وكان ينسى دائما أن يروياها ، ولكنها كانت دائمة الخضرة ، حافلة بالأزهار ، خالية من أية ورقة ذابلة ؛ لأن السيدة اليزابيث كانت ترعاها فى وقت مبكر كل صباح .

وذات مساء قارس البرد عاصف الريح كان الموسم فيه يتجه صوب

الخريف ، وقد خلا شارع «موسناكر» من الناس ، أحست المرأة المسكينة بالمخاض ، فارتاعت لأنها كانت وحدها تماما ، ولكن عندما أوغل الليل ، أقبلت امرأة عجوز تحمل في يدها مصباحا ، فدخلت المنزل ، وشرعت تغلى الماء ، وتعد البياضات ، وتقوم بكل ما يحتاج إليه طفل يجمىء إلى العالم ، واستسلمت السيدة «اليزابيث» للرعاية فى صمت ، ولم تنبس بشيء ، حتى إذا ولد الطفل ، ولف فى قماط ناعم جديد ، ودخل فى أول يوم له على الأرض ، سألت المرأة العجوز : متى جاءت ؟

فأجابتها المرأة : « لقدب أرسلنى السيد بنسفاجنر » وسرعان ماغشى النوم الأم التى أنهكها التعب . وعندما استيقظت فى الصباح ، وجدت لبنا مغليا فى انتظارها وكل شىء فى الحجرة مرتبا فى عناية فائقة ، وإلى جانبها ، رقد ابنها الصغير يصرخ من الجوع . غير أن المرأة العجوز كانت قد رحلت ، فضمت السيدة «اليزابيث» الطفل إلى صدرها ، وسرها أنه جميل قوى . وتذكرت أباه الراحل الذى لم يعيش حتى يراه ، فاغرورقت عينها بالدموع ، ولكنها احتضنت الطفل اليتيم الصغير ، وابتمت مرة أخرى ، ثم عادت إلى النوم هى وصغيرها . فلما استيقظت ، كان هناك مزيد من اللبن ، وطبق جاهز من الحساء ، ووجدت الطفل ملفوفا فى أغطية نظيفة .

ولم تلبث الأم أن استردت صحتها وعافيتها ، بحيث استطاعت أن ترعى نفسها وطفلها «أغسطس» وأدركت أنه لابد من تعميم ابنها ، ولكنها لا تجد له إشبينا . وذات مساء ، عندما أقبل الغسق ، وانطلقت الموسيقى العذبة مرة أخرى من المنزل الصغير المجاور ، ذهبت إلى باب «السيد بنسفاجنر» ، وطرقته مترددة ، فاستقبلها بصيحة ودية ، وقال لها : «ادخلى !» وفجأة توقفت الموسيقى ، وفى الحجرة شاهدت مائدة صغيرة

عتيقة، يعلوها مصباح وكتاب . وكل شيء فيها عادى كما ينبغي أن يكون .
 قالت السيدة « اليزابيث » : جئت لأشكرك على تلك المرأة الطيبة التى أرسلتها إلى وأرغب فى أن أدفع أجرها حتى أستطيع العودة إلى العمل وكسب شيء من المال ، غير أننى مهمومة بشيء آخر فلا بد من تعميم الطفل ، وتسميته أغسطس على اسم أبيه ، ولكننى لا أعرف أحدا ، ولا أجد له إشيينا » .

قال جارها وهو يتخلل بأصابعه لحيته التى وخطها الشيب : « أجل . . .
 لقد فكرت فى هذا أيضا ، وأحسب أنه من الخير أن تجدى له إشيينا عطوفا غنيا يمكن أن يتعهده إذا مسك أذى ، إننى وحيد أيضا وعجوز وليس لى سوى أصدقاء قلائل ؛ ولهذا لا أستطيع أن أوصى بأحد ، اللهم لأنفسى ، إذا تقبلت ذلك .

وكان هذا العرض مبعث سعادة للأم المسكينة ، فشكرت الرجل العجوز ووافقت فى خماسة . وفى يوم الأحد التالى ، حملت الطفل إلى الكنيسة ، حيث قاموا بتعميده ، وهناك ظهرت السيدة العجوز أيضا ، ومنحت الطفل قطعة نقود فضية ، وعندما اعتذرت السيدة اليزابيث عن قبولها ، قالت العجوز : « كلا . . . خذها ، فأنا امرأة عجوز ولدى ما أحتاج إليه . . .
 ولعل هذه القطعة من النقود تجلب له الحظ ، وأنا سعيدة إذا أسديت للسيد بنسفاجر هذا الجميل ، فنحن صديقان قديمان »

وذهبا معا إلى حجرة السيدة « اليزابيث » ، فقدمت القهوة لضييفها ، وكان « السيد بنسفاجر » قد أحضر كعكة ، هكذا تحولت المناسبة إلى حفل تعميم حقيقى . وبعد أن فرغوا من الطعام والشراب ، وكان الطفل قد خلد

إلى النوم منذ أمد بعيد ، قال الشيخ العجوز على استحياء : « الآن وقد أصبحت إشبين أغسطس الصغير ، كنت أحب أن أهدي إليه قصر ملك ، وأن أنفحه كيسا مليئا بالقطع الذهبية ، إلا أن هذه أشياء لا أملكها ، ولا يسعني إلا أن أضيف قطعة فضية إلى القطعة التي جادت بها جارتنا ، وعلى كل حال ، ما أستطيع أن أفعله له ، سأفعله ، وليس من شك أنك أردت لابنك الصغير ماتشتهيه الأم من أشياء جميلة رائعة . والآن ، فكرى جيدا فى الشيء الذى يبدو لك أنه أفضل ماتشتهينه له ، وسأدبر الأمر ؛ لكى يتحقق ماتشتهين . لديك أمنية واحدة لطفلك أيا كانت ، أمنية واحدة فحسب ، أمعنى الفكر . وفى هذا المساء ، عندما تسمعين الموسيقى من صندوقى ، همسى بأمنيته فى الأذن اليسرى لطفلك الصغير ، وستحقق الأمنية . »

وماكاد ينتهى من قوله ، حتى خرج مغادرا الحجرة تصحبه الجارة العجوز، تاركين السيدة اليزابيث فى حالة من الذهول . ولولا أنها أبصرت قطعتى النقود فى المهد والكعكة على المائدة ، لظنت أن الأمر لا يعدو أن يكون حلما . جلست إلى جوار المهد ، وهى تهز طفلها ، على حين استغرقت فى التأمل واستعراض كثير من الأمنيات الجميلة . وخطر لها لأول وهلة أن تجعله غنيا وسيما ، ثم خطر لها أن تجعله قويا قوة خارقة ، ثم لماحا ، ذكيا ، ولكنها شعرت فى كل اختيار بشيء من التردد ، وانتهت أخيرا إلى أن هذا كله لا يعدو أن يكون مزاحا أراد العجوز أن يداعبها به .

وساد الظلام فعلا ، وكاد النعاس يغلبها وهى جالسة بجوار المهد ، فقد أنهكها التعب على إثر قيامها بدور المضيفة ، ومن متاعبها ، وتفكيرها فى تلك الأمنيات الكثيرة . وفجأة تناهت إليها من الباب المجاور ، موسيقا

لطيفة ، أجمل وأرق من أية ألحان يمكن أن تنبعث من صندوق موسيقا .
وأجفلت السيدة « اليزابيث » عند سماعها ذلك الصوت ، وتذكرت .
وأمّت الآن مرة أخرى بجارها « السيد بنسفاجنر » وبهديته بوصفه إشبينا ،
ولكنها كلما أمعنت الفكر ، واشتدت رغبتها في أن تستقر على أمنية ، اشتد
عقلها حيرة ، وعجزت عن اختيار أى شىء .

وجدت نفسها في كرب شديد ، فانسكبت الدموع من عينيها ، وهناك
ازدادت الموسيقى نعومة وخفوتا ، وأدركت أنها إذا لم تبد أمنيتها في تلك
اللحظة ، فقد يفوت الأوان .

تنهدت بصوت مرتفع ، وانحنى على الطفل ، وهمست في أذنه
اليسرى : ابني الصغير ، أتمنى لك - وكلما ازدادت الموسيقى العذبة خفوتا ،
استبد بها الفرع ، فقالت مسرعة : « أتمنى لك أن يحبك كل إنسان » .

حينئذ تلاشت التوترات جميعا ، وخيم صمت رهيب على الحجرة
المعتمة ، فانحنى على المهد باكية ، وقد استولى عليها الجزع والخوف ،
فهفت قائلة : آه ! الآن وقد تمنيت لك خير ما أعرف ، ربما لم يكن ذلك هو
الشيء الصحيح ؛ ذلك أنه لو أحبك الجميع ، وأحبك كل إنسان ، فلن
يحبك أحد مثلما تحبك أمك .

وشب أغسطس « صبيا وسيا أشقر الشعر ، تنقد عيناه نشاطا وحيوية ،
تدلله أمه ، ويحبه كل إنسان ، ولم تلبث السيدة اليزابيث أن أدركت أن أمنية
يوم العمد التي تمتتها لطفلها أخذت تتحقق ؛ إذ ما كان الطفل الصغير يبلغ
من العمر ما يكفيهِ للسير في شوارع المدينة حتى كان كل من يلقاه يراه وسيا
ذكيا مفعما بالحيوية ، فيربت على يده ، ويبدى له إعجابه دون مواربة .

وكانت الأمهات الشبابات يبتسمن له ، والنسوة العجائز يمنحنه التفاح ، فإن أظهر شيئا من المشاكسة ، لم ير أحد في ذلك شيئا من الخطأ ، فإذا كان الخطأ واضحا للعيان ، كان الناس يهزون أكتافهم قائلين : « إن المرء لا يملك حقا أن يأخذ شيئا على هذا الصبي الحبيب » .

وكان الأشخاص الذين شاهدوا الصبي الوسيم يذهبون لزيارة أمه ، وبعد أن كانت تشعر بالوحدة الشديدة ولا تقوم بحياكة الثياب للناس إلا في القليل النادر ، أصبح لها الآن من الزبائن فوق ما كانت تتمنى ، وسارت الأمور معها ومع الصبي على خير وجه ، وكلما خرجا للسير معا ، ابتسم الجيران لهما وحيوهما ، وأقبلوا على الطفل المحظوظ يداعبونه .

أما أفضل شيء فهو ما حدث لأغسطس عند الباب المجاور عند أبيه الروحي ؛ فقد كان « السيد بنسفاجنر » يدعوهم أحيانا إلى بيته في المساء ، عندما يهبط الظلام ، وكان النور الوحيد في الحجرة شعلة صغيرة حمراء تحترق في الفراغ الأسود من المدفأة ، فكان الرجل العجوز يجلس الصبي إلى جواره على سجادة من الفراء مفروشة على الأرض ؛ ليقص عليه حكايات طويلة عندما كان الاثنان يحملقان في ألسنة اللهب الهادئة . وفي بعض الأحيان ، عندما كانت قصة طويلة تقترب من نهايتها ، ويوشك النعاس أن يغلب الصبي على أمره ، فأخذ ينظر إلى النار بعينين نصف مغمضتين ، كانت تنساب في الظلام موسيقا بوليفونية عذبة ، فإذا أنصت إليها الاثنان زمنا طويلا ، امتلأت الحجرة فجأة بملائكة صغار متألقين يطوفون في دوائر بأجنحة ذهبية لامعة ، ويرقصون أزواجا أزواجا في نشاط وحمية ، وهم يغنون في الوقت نفسه . وتجاوبت جدران الحجرة كلها بمئات من ألحان الفرح والجمال يشيع فيها الصفاء والانسجام . وكان هذا أروع ما مر بتجربة

«أغسطس» وعندما كان يتذكر طفولته فيما بعد ، كانت هذه الحجرة المعتمة الهادئة التى عاش فيها أبوه الروحى العجوز ، وألسنة اللهب الحمراء فى المدفأة ، والموسيقا ، والتحليق السحرى المرح لتلك الكائنات الملائكية بأجنحتها الذهبية - كان هذا كله هو ماتحفل به ذاكرته ، ويجعله يشعر بالحنين إلى الوطن .

وكلما شب الصبى عن الطوق ، كان الأسى يتتاب الأم فى كثير من الأحيان ، ويدفعها إلى التفكير فى ليلة التعميد تلك ، وكان أغسطس يجرى مرحا فى الشوارع المجاورة ، والجميع يرحبون به ، ويقدمون له البندق والكمثرى والحلوى واللعب ، وكل صنوف المأكولات والمشروبات ، ويجلسونه على حجورهم ، ويسمحون له بقطف الأزهار من حدائقهم ، وكثيرا ما كان يعود متأخرا إلى منزله فى المساء ، فيزيح غاضبا ماتقدمه له أمه من الحساء . فإذا أحست بالشقاء ، ولجأت إلى البكاء ، كان يبدو عليه الضجر ، ويأوى إلى فراشه حانقا . وإذا ضربته . أو عاقبته كان يصرخ ، ويشكو بصوت مرتفع بأن كل الناس يعاملونه بلطف وعطف فيما عدا أمه . كانت تغضب على ابنها حقا فى تلك الأوقات ، ولكنها كانت فيما بعد ، حين ينام الطفل بين وسائده وضوء الشمعة يتراقص فوق محياه الطفولى البرىء ، كانت تتبدد من قلبها كل غلظة ، فكانت تقبله فى حذر خوفا من إيقاظه . كان حب الناس جميعا لأغسطس غلطتها هى ، وفى بعض الأحيان كان يخطر لها خاطر مشوب بالندم بل بالقلق أحيانا - بأنه كان من الأفضل لو أنها لم تتمنَّ تلك الأمنية أبدا .

وذات مرة كانت تجلس إلى جوار نافذة « السيد بنسفاجر » التى يتسلقها نبات الجيوانيوم ، وقد جعلت تقص الأوراق الذابلة بمقص صغير ، حين

تناهى إليها صوت ابنها فى الفناء الذى يمتد خلف المنزلين ، فاستدارت
لتنظر إليه ، كان يرتكن إلى الجدار وقد علت وجهه الوسيم نظرة ازدراء ،
وأمامه وقفت فتاة أطول منه تقول فى إغراء : « تعال الآن ، ستكون ظريفا ،
ألا تريد ذلك ، وأعطني قبلة ؟ »

قال أغسطس وهو يضع يديه فى جيوبه : « ولكنى لا أريد » فألحت عليه
قائلة : « أوه ! أرجوك أن تفعل ، وسأعطيك شيئا جميلا » . سأها الصبى :
« ماذا ستعطينى ؟ »

فأجابت على استحياء : « لدى تفاحتان . »

قال فى ازدراء : « لا أريد أى تفاح » وهم بمغادرة المكان . إلا أن الفتاة
أمسكت بذراعه ، وقالت متزلفة : « انتظر . . عندى أيضا خاتم جميل »
فقال أغسطس : « دعينى أراه ! »

عرضت عليه خاتمها ، فأمعن النظر إليه ، ثم خلعه ثم
إصبعها ، ووضعها فى أصبعه ، وعرضه للضوء ، وأومأ برأسه : موافق . ثم
قال بفتور : « فليكن ، تستطيعين أن تأخذى قبلة » ، وألقى قبلة سريعة على
نحر الفتاة .

قالت فى ثقة وهى تتشبث بذراعه : « ستأتى وتلعب معى الآن ، أليس
كذلك ؟ »

ولكنه دفعها جانبا وصاح فى ضجر : « اتركنى فى سلام ، ألا تستطيعين
ذلك ؟ لدى أخريات لألعب معهن . » وشرعت الفتاة فى البكاء ، وهمت
بمغادرة الفناء ، فأتبعها النظر وقد ارتسم على وجهه تعبير الحنق والضجر ،

ثم أدار الخاتم في إصبعه ، وجعل يتفحصه ، وشرع في الصفير ، سائرا على مهل بعيدا عن المكان .

وقفت الأم ساكنة ومقص الحديقة في يدها ، وقد صدمتها الفظاظة والقسوة التي عامل بها ابنها حب شخص آخر ، فانصرفت عن الزهور ، وهزت رأسها وأخذت تردد لنفسها مرارا وتكرارا :

« لماذا ؟ إنه شرير ، لا يملك قلبا على الإطلاق . »

وعندما عاد « أغسطس » إلى البيت بعد قليل ، عنفته ، ولكنه نظر إليها ضاحكا بعينه الزرقاوين ، ولم يظهر أية علامة على الشعور بالذنب ، ثم أخذ يغنى ، وأبدى لها من العطف والحنان ، ومن الدعابة والرقّة ، بحيث لم تتمالك نفسها من الضحك ، وقررت في سريرة نفسها أن المرء لا ينبغي بالضرورة أن يأخذ مايفعله الأطفال مأخذ الجد .

إلا أن الصبي لم يفلت تماما من العقاب على أفعاله السيئة . وكان الشخص الوحيد الذى سيحسب له حسابا هو السيد بنسفاجنر أبوه الروحى ، فإذا ذهب في المساء لرؤيته ، قال له أبوه الروحى : « اليوم ، لن تشتعل نار في المدفأة ، ولن توجد موسيقا ، والملائكة الصغار غاضبون ؛ لأنك كنت سيئا . »

وعندئذ كان الصبي يعود إلى البيت صامتا ، فيرتقى على سريره ، باكيا ، وفي الأيام التالية ، يحاول جاهدا أن يكون صالحا طيبا .

ومع ذلك ، كانت نيران المدفأة أقل اشتعالا عن ذى قبل ، كما أنه لم يكن يستطيع أن يتزلّف إلى أبيه الروحى بالدموع والعناق . وعندما بلغ « أغسطس » الثانية عشرة من عمره ، كان التحليق الملائكى السامر في حجرة

الشيخ قد أصبح حلما بعيد المنال ، فإذا أتاه هذا الحلم فعلا مصادفة أثناء الليل ، فإنه كان يبدو في اليوم التالى شرسا مشاكسا بصورة مضاعفة ، ويأمر وينهى أصدقاءه الكثيرين المحيطين به ، وكأنه فيلد ماريشال لا يعرف الرحمة .

وكانت أمه سئمت منذ أمد طويل ماتسمعه من كل إنسان عن وسامة ابنها وسحره ، والواقع أنه لم يكن بينها وبينه سوى المتاعب . وعندما جاء مدرسه إليها ذات يوم وأخبرها بأنه يعرف شخصا يمكن أن يدخل ابنها مدرسة بعيدة ، ذهبت إلى جارها تطلب منه المشورة ، وبعد ذلك بقليل ، وفي صباح يوم من أيام الربيع ، وقفت مركبة أمام الباب ، فاستقلها «أغسطس» وكان يرتدى حلة جديدة أنيقة ، بعد أن ودع أمه وأباه الروحي والجيران جميعا ؛ لأنه كان مسافرا إلى العاصمة ليدرس هناك . وكانت أمه قد صفقت شعره الأشقر للمرة الأخيرة ، ومبنته بركتها . وانطلقت به الجياد ، ورحل «أغسطس» إلى العالم الرحيب .

وبعد أعوام عديدة ، عندما أصبح «أغسطس» طالبا في الكلية يضغ على رأسه قلنسوة حمراء ، وينبت له شارب ، عاد بالمركبة مرة أخرى إلى بيته القديم ؛ لأن أباه الروحي كتب إليه قائلا : « إن أمه قد اشتد بها المرض ، وإنها لن تعيش طويلا .

وبلغ الشاب بيته في المساء . واندھش الناس وهم يرونه ينزل من المركبة يتبعه الخوذى حاملا حقيبة ضخمة إلى المنزل . وكانت السيدة «اليزابيث» تعاني سكرات الموت في الحجرة العتيقة وذات السقف المنخفض ، فلما أبصرها الطالب الوسيم وقد علاها الشحوب والذبول فوق الوسائد البيضاء ، ولاتستطيع أن تحييه إلا بنظرات عينيها الهادئتين ، ألقى نفسه على فراشها

منتحبا ، وأخذ يقبل راحتيها الباردتين ، وركع إلى جوراها الليل بأكمله ، حتى تثلجت يداها ، وفارقت عيناها الحياة .

وما إن ووريت التراب ، حتى صحبه أبوه الروحي بنسفانجر « من ذراعه ، ودخل معه إلى بيته الصغير الذى بدا للشاب أقفر وأظلم عن ذى قبل ، وعندما جلسا معا وقتا طويلا ، وكانت النافذة الصغيرة هى وحدها التى تومض بضوء خافت فى الظلام ، جعل الرجل العجوز الضئيل يتخلل لحيته البيضاء بأصابعه النحيلة ، ثم خاطب أغسطس قائلا : « سأوقد نارا فى المدفأة ، وعندئذ لن نحتاج إلى المصباح وأنا أعلم أنه ينبغي لك أن ترحل غدا ، والآن وقد ماتت والدتك ، فلن تعود فى وقت قريب جدا » .

وما إن قال هذا ، حتى أشعل نارا ضئيلة فى المدفأة ، وسحب مقعده بالقرب منها ، ووضع مقعد « أغسطس » قريبا من مجلسه . وجلسا على هذا النحو فترة أخرى طويلة ينظران إلى الجمرات المتوهجة ، حتى هدا الشرر المتطاير ، وهنا قال الرجل العجوز متلطفًا : « وداعا يا أغسطس ، أتمنى لك كل خير . كانت لك أم صالحة صنعت من أجلك أكثر مما تعلم . وكما كان يسرنى أن أصنع لك تلك الموسيقى مرة أخرى وأن أريك الصغار المباركين ، ولكنك تعلم أن هذا لم يعد ممكنا الآن . ولكن ينبغي ألا تنساهم ، وأن تتذكر أنهم يواصلون الغناء ، وربما استطعت أن تسمعهم ثانية إذا جاء وقت تمثيت فيه ذلك بقلب وحيد مشتاق . والآن ، أعطنى يدك يابنى ؛ فأنا عجوز ، وينبغي أن أذهب للفراش » .

وصافحه « أغسطس » ولكنه لم يستطع الكلام . ورجع حزينا إلى بيته الصغير المقفر ، ووقد للمرة الأخيرة فى منزله العتيق ، ولكنه قبل أن ينام ، خيل إليه أنه سمع مرة أخرى موسيقا طفولته العذبة ، وإن تكن بعيدة

جدا ، خافته جدا . وفى صباح اليوم التالى رحل عن بيته ، ولم تسمع مدينته شيئا عنه بعد ذلك لأمد طويل .

ولم يلبث أن نسى هو أيضا أباه الروحى بنسفاجنر والملائكة الصغار ؛ فقد كان يحيا حياة مترفة يجد فيها متعة فائقة . ولم يكن هناك من يضارعه فى أسلوبه حين يركب خلال شوارع المدينة ملوحا للفتيات المتيهات به ، باعثا لهن بنظراته الخفية التى تثير غيظهن ، ومامن أحد كان يستطيع أن يمتطى جواده بمثل ذلك المرح والرشاقة ، وما من أحد كان يمكن أن يجاريه فى غروره واختياله أثناء مجالس القصف والشراب التى تنعقد فى الحديقة فى ليالى الصيف . وكانت عشيقته الأرملة الغنية تمده بالأموال والثياب والخيل ، وبكل ما يحتاج إليه ويشتهيه ، وقد سافر معها إلى باريس وروما ، ورقد على ملاءاتها الحريرية ، وهذه العشيقة كانت على كل حال - هى الابنة الناعمة الشقراء لمواطن فى العاصمة ، وكان يلقاها متهورا فى حديقة أبيها ، فإذا سافر إلى الخارج بعثت إليه رسائلها طويلة حارة .

وجاء حين لم يعد فيه ، فقد وجد أصدقاء له فى باريس ، ولما كان قد سئم عشيقته الثرية ، وأصبحت الدراسة بالنسبة إليه عبئا ثقيلا منذ أمد بعيد ، فقد مكث فى الخارج ، وعاش حياة الطبقة المترفة ، فاقتنى الجياد والكلاب والنساء ، وبعثر المال واكتسب المال على موائل الميسر ، وكان الناس يتبعونه فى كل مكان ، وكأنهم أسراه ، كانوا يخدمونه ، فيبتسم ويقبل كل شىء ، كما قبل خاتم الفتاة الصغيرة من قبل ، وبقي سحر الأمانة التى تمتنها أمه فى عينيه وعلى شفثيه ، فكانت النسوة يدللنه فى حنان ، وكان أصدقاؤه مهووسين به ، ولم ينطق أحد - ونادرا ما فطن هو نفسه - أن فؤاده أصبح فارغا ، جشعا ، وأن روحه عليلة ، ممتلئة بالألم ، وفى بعض

الأحيان، كان الحب يضجره فيهرب متنكرا إلى مدن أجنبية ، إلا أنه كان يجد الناس تافهين في كل مكان ، ومن اليسير غزوهم ، وفي كل مكان كان يزدري الحب الذى يتبعه بهذه اللفهه ، والذى يرضى بهذا القليل . وكثيرا ماكان يشعر بالاشمئزاز من الرجال والنساء الذين لايملكون مزيدا من الكبرياء وعزة النفس ، فكان يقضى أياما بأكملها وحيدا مع كلابه في أكواخ الصيد الجميلة المتناثرة بين الجبال ، فإذا طارد وعلا واصطاده ، كان ذلك أجلب لسعادته من امتلاك حسناء أفسدها التدليل .

وأثناء إحدى رحلاته البحرية ، قابل مصادفة زوجة سفير شابة ، كانت سيدة متحفظة ، هيفاء القوام ، تنتمى إلى طبقة النبلاء الشمالية ، وتقف متميزة تميزا واضحا بين كثيرات من النساء الحريصات على اتباع كل ماهو حديث ، والرجال الدنيويين ، كانت شائخة ، معتزة بنفسها في هدوء ، وكأنها لا تجد ندا لها ، وعندما راقبها ورأى أن نظراتها قد تجاوزته هو أيضا في عجلة وبلا مبالاة ، خيل إليه أنه يجرب الحب لأول مرة ، وعقد عزمه على الفوز بقلبها ، ومنذ ذلك الحين - وفي كل ساعة من ساعات النهار - مكث قريبا منها ، وأمام عينيها ، ولما كان هو نفسه محاطا دائما بالمعجيين به الذين يرجون مصاحبتة ، فقد ظل هو والسيدة الجميلة اللامبالية المركز الذى يتحلق حوله جماعة المسافرين ، وكأنه أمير لأمرته ، بل إن زوجها الأشقر نفسه كان يعامله باحترام ، ويتجشم العناء لإرضائه .

ولم يتمكن من الانفراد بهذه الفاتنة الغريبة ، حتى ألقت السفينة مرساها في ميناء جنوبي ، فبارحها المسافرون جميعا ؛ ليقضوا ساعات متجولين في المدينة الأجنبية ، وليشعروا بصلاية الأرض تحت أقدامهم مرة أخرى ، إلا أنه لم يتحرك من جوار محبوبته ، وأفلح أثناء اختلاط الناس واضطرابهم في سوق

المدينة أن يتجاذب معها أطراف الحديث . وكانت دروب صغيرة معتمة
لا حصر لها تصب في ذلك الميدان ، فصحبها إلى واحد منها ، ورافقتها في
ثقة ، ولكنها عندما أدركت فجأة أنها وحيدة معه ، توترت أعصابها ،
وأخذت تتلفت على رفاقها في الرحلة ، فاستدار إليها متلهفًا ، وأخذ يدها
المرتدة بين يديه ، وزين لها أن تترك السفينة وتهرب معه .

وعلاها الشحوب ، وظلت عينها مطرقتين إلى الأرض ، ثم قالت في
نعومة : « ليس هذا من الفروسية في شيء . أرجو أن تسمح لي بنسيان
مقاتله فوراً . »

فصاح أغسطس : « لست فارساً ، إنما أنا عاشق ، ولا يعرف العاشق
شيئاً سوى معشوقته ، ولا يفكر إلا في أن يكون معها . ياسيدي الجميلة ،
اهربى معي وسنكون سعيدين . »

ألقت عليه نظرة رزينة مؤنبة من عينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم همست
قائلة : « كيف عرفت أنني أحببتك ؟ أنا لا أنكر ذلك ، أنا أحبك ، وقد
تمنيت كثيراً أن تكون زوجي ؛ فأنت أول من أحبته بكل قلبي . وأأسفاه !
كيف يمكن أن ينجح الحب إلى كل هذا الضلال ! وما كنت لأفكر أبداً في أنه
من الممكن بالنسبة لي أن أحب رجلاً ليس طاهراً أو خيراً . ولكنني أؤثر ألف
مرة أن أبقى مع زوجي الذي لا أحبه كثيراً ، ولكنه فارس كامل الشرف
والفروسية ، وهما صفتان لا تعرفهما . والآن ، لا تتفوه بكلمة أخرى ، بل
عد إلى السفينة ، وإلا فسوف أنادي على الغرباء للحمايتي من وقاحتك » .
ومهما يكن من غضبه وتوسلاته ، فإنها أشاحت عنه ، وهمت بالسير وحدها
لولا أنه لحق بها صامتا ، ورافقها حتى بلغا السفينة . وهناك أنزل حقيته إلى
الشاطئ دون أن يودع أحداً .

ومنذ ذلك الحين ، تبدل خط هذا الرجل الذى أحبه الناس كثيرا ، فأصبحت الفضيلة والشرف شيئين يبغضهما كل البغض ، وذاس عليهما تحت قدميه ، وأخذ يسرى عن نفسه بإغواء النساء الفضليات بخدعه السحرية ، واستغلال الرجال الذين لا ترقى إليهم الشبهات ، فيتخذ منهم أصدقاء ، وسرعان ما ينقلب عليهم ، مبديا لهم احتقاره . وكـم من نساء وفتيات دفعهن إلى الفقر ثم تنكر لهن ، وكان يبحث عن الشبان الذين يتمنون إلى بيوت نبيلة فيجتهد فى إغوائهم وإفسادهم ما وسعه الإغواء والإفساد . ولم تكن ثمة متعة لم ينغمس فيها ولم يستقطرها ، أو رذيلة لم يكتسبها ثم ينبذها ليقارف غيرها ، إلا أن قلبه كان يخلو من كل سعادة ، ولا يتردد فى روحه أى صدى للحب الذى كان يستقبله فى كل مكان .

وفى بيت ريفى فخم يقع على شاطئ البحر ، كان يعيش ملوما محسورا ، وكان الرجال والنساء الذين يقبلون لزيارته هناك ، يعذبهم بنزواته الوحشية ، وازدراؤه الشديد . وكان يجد لذته فى الخط من قدر الناس ومعاملتهم بأقسى أنواع الاحتقار ، وكان متخما إلى درجة الاشتمزاز بالحـب الذى لا يسعى إليه ، ولا يرغب فيه ، ولا يستحقه ، والذى يحيط به حيثما ذهب ، كما كان يشعر بعـث الحياة المبعثرة المهوشة التى لم يعط فيها أبدا ، وإنما يأخذ دائما .

وفى بعض الأحيان ، كان يفرض الجوع على نفسه فترة طويلة ؛ لكى يشعر بشهية حقيقية فيما بعد ، ولكى يشبع شهوته .

وانتشرت الأنباء بين أصدقائه بأنه عليل ، يحتاج إلى الهدوء والعزلة ، وإنهالت عليه الرسائل ، ولكنه لم يكن يقرؤها أبدا ، فكان أصحابه الذين أزعجتهم هذه الحالة يستفسرون من الخدم عن صحته ، ولكنه كان يجلس

وحيدا ، غارقا في همومه في القاعة التى تشرف على البحر . . . وقد امتدت حياته الخاوية اليائسة ورائه ، قاحلة خالية من الحب مثل هذا البحر الرمادى المالح المتلاطم الذى يمتد أمامه . كان وجهه بشعا ، وهو قابع فى مقعده مطلا من النافذة العالية ، يحاسب نفسه . وكانت أسراب النورس البيضاء تتدافع بفعل الريح صوب الشاطئ ، فأخذ يتابعها بعينين تَحْلوان من كل فرح وتعاطف . وما إن وصل إلى ختام تأملاته ، ونادى على خادمه ، حتى انفرجت شفاته عن ابتسامة فظة شريرة ، وأصدر أوامره بأن يدعى أصدقائه جميعا إلى وليمة فى يوم معلوم ، وكان ينوى أن يثير فى قلوبهم الرعب وأن يسخر منهم عند وصولهم برؤية المنزل خاويا ، ترقد فيه جثته ، فقد اعتزم أن ينهى حياته بالسم .

وفى مساء اليوم الذى حددته لإقامة الوليمة ، صرف خدمه جميعا عن المنزل ، فران الصمت تماما على الحجرة الواسعة ، وانسحب إلى حجرة نومه ، حيث مزج قطرات من السم الناقع فى كأس الخمر القبرصية ، ثم رفعه إلى شفتيه .

وفى اللحظة التى أوشك فيها أن يتجرع السم ، سمع طرقا على الباب ، فلما لم يجب ، فتح الباب ، ودخل رجل عجوز ضئيل الجسم ، اتجه مباشرة إلى « أغسطس » وانتزع الكأس الممتلئ من يديه بعناية ، وقال بصوت مألوف : « نعمت مساء يا « أغسطس » ، كيف تسير بك الأحوال ؟ » .

ابتسم « أغسطس » ساخرا ، وقال بعد أن تناوبته الدهشة والغضب ، والخلج أيضا : « السيد بنسفاجنر ! أما زلت حيا ؟ لقد انقضى وقت طويل ، ومع ذلك يبدو بالفعل أن سنك لم يكبر ، ولكنك تزعجنى فى هذه

اللحظة ، أيها الشيخ العجوز ، كنت متعبا ، وقد هممت بشرب منوم» .
فأجابه أبوه الروحي هادئا : « إذن ، فأنت تريد أن تشرب منوما ، وأنت على حق ، فهذا هو النبيذ الأخير الذى مازال فى الإمكان أن يساعذك .
ولكن قبل أن تفعل هذا سنتحدث لحظة ، يابنى ، ولما كانت تنتظرنى رحلة طويلة ، فلن يضيرك أن أنعش نفسى برشفة صغيرة » .

وما إن أخذ الكأس ورفعته إلى شفتيه ، وقبل أن يتمكن « أغسطس » من منعه أفرغه كله فى جرعة واحدة .

وشحب وجه أغسطس شحوب الأموات ، فوثب صوب أبيه الروحي ، وهزه من كتفيه ، وصاح بحدة : « أيها العجوز ، أندرى ماذا تجرعت لتوك؟ » .

فأطرق السيد « بنسفاجنر » برأسه الأشيب الذكى وابتسم قائلا : « إنها خمر قبرصية ، على ماأظن ، وهى ليست رديئة . يبدو أنك لست معسرا ولكن ، ليس لدى وقت طويل ، ولن أحتجزك طويلا إذا أنصت إلى فحسب » .

استولى الارتباك على « أغسطس » فتفرس فى عيني أبيه الروحي اللامعتين مرتاعا متوقعا أن يراه منهارا فى أية لحظة . غير أن السيد « بنسفاجنر » جلس مرتاحا فوق مقعد ، وأوما برأسه لصديقه الشاب إياه رقيقة .

« أتخشى أن تؤذيني هذه الجرعة من النبيذ؟ لا عليك ، فلتهدأ بالآء ، لطيف منك أن تنزعج من أجلى . هذا شىء لم أتوقعه أبدا ، والآن دعنا نتحدث مرة أخرى كما كنا نفعل فى الأيام الخوالى . يبدو لى أن حياة التزق

والطيش قد أتحمتك ؟ أستطيع أن أفهم هذا ، وعندما أرحل ، تستطيع أن تملأ كأسك ، وأن تتجرعه حتى الثمالة »

ولكن ، قبل هذا ، أريد أن أخبرك بشيء .

أسند « أغسطس » نفسه إلى الجدار ، وأنصت لصوت الرجل العجوز وهو ينبعث رقيقا عطوفا ، هذا الصوت المألوف لديه منذ الطفولة أثار أصدااء الماضي بحيث تجاوبت في روحه . وغمره شعور عميق بالخجل والحسرة وهو يرجع ببصره إلى شبابه البريء

قال العجوز : « لقد تجرعت سمك ؛ لأننى الشخص المسئول عن تعاستك ، ففى أثناء تعميديك تمت أملك أمنية من أجلك ، فحققتها لها ، وإن كانت أمنية حمقاء ، ولست بحاجة إلى أن أصفها لك بهذا الوصف ، لقد أصبحت لعنة ، كما تدرك ذلك بنفسك . ويؤسفنى أنها تحولت على هذا النحو ، ومن المؤكد أننى سأكون سعيدا لو عشت لأراك جالسا إلى جوارى مرة أخرى ، فى البيت ، أمام المدفأة مصغيا إلى غناء الملائكة الصغار . هذا شيء لم يعد يسيرا ، وفى هذه اللحظة قد يبدو لك من المحال أن يعود قلبك إلى صحته ونقائه ومرحه . ولكن هذا ممكن ، وأنا أرجوك أن تحاول . إن أمنية أملك المسكنية لم تلائمك تماما يا أغسطس . ماذا لو سمحت لى الآن أن أحقق لك أمنية أيضا ، أية أمنية ؟ من المرجح أنك لن تتمنى المال أو الأملاك أو السلطان أو . . . حب النساء ، فقد كان لديك من هذا كله مايكفى . فكر جيدا ، وإذا كنت تعتقد أنك تعرف رقية سحرية يمكن أن تجعل حياتك التي تبددت أجهل وأفضل ، وتستطيع أن تجعلك سعيدا مرة أخرى ، فتمنّها إذن لنفسك . »

جلس « أغسطس » صامتا مستغرقا في التفكير ، ولكنه كان مرهقا قانطا، فقال بعد برهة : « أشكرك ، يا أبى الروحى بنسفاجنر ، ولكنني لا أعتقد أن هناك مشطا يمكن أن يسوى تشابكات حياتي ، ومن الخير لي أن أفعل ما كنت أدبره حين أتيت .

ولكنني أشكرك على كل حال ، على مجيئك » .

قال العجوز متفكرا : « أجل ، أستطيع أن أتصور أن هذا الأمر ليس يسيرا عليك ، ولكن ، لعلك تستطيع أن تتصور الشيء الأساسى الذى ينقصك ، أو لعلك تستطيع أن تتمنى تلك الأيام التى كنت تأتى فى المساء لترانى فيها ، أثناء حياة أمك - من حين إلى آخر . فمهما يكن من أمر ، كنت سعيدا فى بعض الأحيان ، أليس كذلك ؟ »

قال « أغسطس » موافقا بإطراقة من رأسه : « بلى . . . فى تلك الأيام . وتراءت له صورة شبابه المشرق من بعيد ، تراءت له شاحبة كأنها تنعكس من مرآة عتيقة . « إلا لأنها لايمكن أن تعود ثانية . ولا أستطيع أن أتمنى أن أصبح طفلا مرة أخرى . لماذا ؟ قد يبدأ كل شيء فى العودة مرة أخرى من جديد » .

« كلا ، أنت على حق تماما ، هذا شيء لاعمنى له على الإطلاق ، ولكن ، فكر فى الوقت الذى كنا فيه معا فى البيت ، وفى الفتاة المسكينة التى اعتدت أن تزورها ليلا فى حديقة أبيها ، عندما كنت طالبا فى الكلية ، وتذكر أيضا السيدة الجميلة ذات الشعر الأشقر التى سافرت معها ذات مرة على سفينة فى البحر ، وتذكر كل اللحظات التى كنت فيها سعيدا ، وعندما كانت الحياة تبدو فيها زاهية ثمينة . ربما أدركت ما كان يسعدك فى تلك اللحظات ، وهنا تستطيع أن تتمناه . افعل ذلك من أجل يابنى ! »

أغمض « أغسطس » عينيه ، وعاد ببصيرته إلى حياته ، كما ينظر المرء وراءه في دهليز معتم صوب نقطة بعيدة من الضوء ، فرأى كيف كان كل شيء حوله مشرقا جميلا ، ثم أخذت العتمة تغشاه شيئا فشيئا ، حتى وجد نفسه قائما في ظلام دامس ، ولم يعد هناك ما يمكن أن يبعث فيه الأمل . وكلما عاد بفكره إلى الوراء وتذكر ، بدا ذلك الضوء المتوهج الضئيل أكثر جمالا ، وأشد روعة وإغراء . وأخيرا تعرف عليه ، وبدأت الدموع تنسكب من عينيه . قال لأبيه الروحي : « سأحاول ، ولكن ارفع عنى ذلك السحر القديم الذى لم ينفعنى ، وامنحنى بدلا منه القدرة على حب الناس » .

وركع بين يدى صديقه القديم باكيا ، وأحس - وهو يجثو - بحبه لذلك الرجل العجوز يشتعل بين جنبيه ، فجاهد للتعبير عنه بكلمات منسقة وحركات . وهنا احتضنه أبوه الروحي ، ذلك الرجل الضئيل - بين ذراعيه ، وحمله إلى فراشه ، وأرقده عليه ، وربت عليه شعره وعلى جبينه المحموم .

وهمس بصوت خافت : « هذا حسن ، هذا حسن يابنى ، وسوف يسير كل شيء على مايرام . »

وحيثئذ أجس . « أغسطس » يارهاق ساحق لنوم عميق . وانصرف الرجل العجوز صامتا من المنزل الخاوى .

واستيقظ « أغسطس » على ضجة مزعجة تتردد فى جنبات المنزل ، فنهض من فراشه ، وفتح باب حجرة نومه ، فوجد القاعة والحجرات جميعا غاصة بأصدقائه الذين أقبلوا لحضور حفلته ، فوجدوا المكان مهجورا . وهنا استحوز عليهم الغضب وخيبة الأمل ، فلما أقبل عليهم ، معتما أن يكسبهم جميعا بابتسامة ودعابة كما اعتاد دائما ، أدرك فجأة أن قدرته على

فعل هذا قد فارقتة . فما كادوا يرونه حتى شرعوا جميعا يتصايحون في وجهه ، فابتسم ابتسامة تتم عن العجز ، وبسط لهم كفيه ضارعا إليهم في محاولة للدفاع عن نفسه ، ولكنهم تقدموا صوبه ساخطين .

صاح أحدهم : « أنت تخدعنى ! أين المال الذى اقترضته منى ؟ وهتف آخر : « والجواد الذى استعترته منى ؟ » ، وصرخت امرأة جميلة ثائرة : « كل الناس قد اطلعوا على أسرارى الآن ؛ لأنك أفسيت ما بيننا فى كل مكان . آه ! كم أكرهك يا أيها المسخ ! » وزعق شاب آخر غائر العينين ، وقد شوه البغض ملامحه : « أنت تعلم ما صنعت به بى ، أيها الوجد ، أيها المفسد للشباب ! »

وهكذا سار الحال على هذا المنوال ، كل واحد منهم انهال بالشتائم واللعنات عليه ، وكل منهم كان على حق ، بل تعدى كثيرون منهم بالضرب عليه . وبعد ان غادروا المكان ، وحطموا المريا أثناء رحيلهم ، وانتزعوا معهم كثيرا من الأشياء الثمينة ، نهض « أغسطس » بعد أن كان مطروحا على الأرض ، مضروبا مهانا . وعندما دخل حجرة نومه ونظر إلى المرأة أثناء اغتساله ، حلق فيه وجهه ، قبيحا ، مليئا بالغضوب ، والعينان هروان ، مبللتان ، والدم يقطر من جبينه .

حدث نفسه قائلا : « هذا جزائى » ، وجعل يمسح الدم عن وجهه ، ربما كاد يجد قليلا من الوقت للتفكير ، حتى اقتحمت الضجة المنزل مرة أخرى ، وأقبل جمع غفير يتدافع على السلم : المرابون الذين رهن عندهم المنزل ، زوج كان قد أغوى زوجته ، آباء أغرى أبناءهم بالزيلة والفساد ، خدم وخادومات كان قد فصلهم ، رجال الشرطة ومحامون ، ولم تنقض ساعة ، حتى كان جالسا فى إحدى عربات الشرطة مقيد اليدين فى طريقه

إلى السجن . وتصايح الجمهور وراءه مشيعا له بالأغاني الساخرة المستهزئة ، وألقى عليه قاطع طريق من إحدى النوافذ حفنة من القاذورات أصابت وجهه .

وأخذت جنابات المدينة تتردد بأصداء الأفعال المخزية التي اقترفتها هذا الرجل الذى عرفه الكثيرون وأحبوه . لم تكن هناك خطيئة لم يتهم بها ، أو يستطيع أنكارها . ووقف أمام القاضى أناس كان قد نسيهم منذ وقت بعيد ، واتهموه بأشياء ارتكبها منذ أعوام . والخدم الذين كافأهم ولم يتورعوا عن سرقة أفسوا رذائله الخفية ، وكانت الوجوه جميعا مشحونة بالبغضاء والحقد ، ولم يكن ثمة أحد يتكلم مدافعا عنه ، أو مثيئا عليه ، أو شافعا له ، أو ذاكرا أى شيء حسن عنه .

ولم يحتج على شيء من هذا كله ، بل استسلم لحراسه الذين اقتادوه إلى زنزانة وأخرجوه منها ليمثل أمام القضاة والشهود . وكان ينظر فى دهشة وأسى من عينين عليلتين إلى كثير من الوجوه الممتلئة بالشر والغضب والكراهية ، وفى كل منها كان يرى وراء البغض والتشوه سحرا مخفيا ، ويجس بوميض من التعاطف . فهؤلاء الناس جميعا أحبه ذات يوم ، ولكنه لم يضمم الحب لأحد منهم ، واليوم يتوسل إلى صفحهم ، ويرجو أن يتذكر شيئا طيبا عن كل واحد منهم .

وفى نهاية الأمر ، أرسل الى السجن . ولم يخطر لأحد أن يزوره هناك . فكان فى أحلامه المحموعة يتحدث إلى أمه ، إلى أول من أحبها ، وإلى أبيه الروحى « بنسفاجنر » ، وإلى السيدة الشمالية التى التقى بها على السفينة . فإذا استيقظ وجلس وحيدا مهجورا خلال تلك الأيام المخيفة ، كابد كل

آلام الحنين والعزلة ، واشتاق إلى رؤية الناس كما لم يشتق إلى أية متعة أو امتلاك .

وعندما أطلق سراحه ، كان شيخا عليلاً ، لم يعد أحد يتعرف عليه . وكان العالم يسير في طريقه كما سار دائما : الناس يركبون العربات ، ويمتطون الجياد ، ويتنزهون في الطرقات ، والباعة يعرضون الفاكهة والأزهار، واللعب والصحف ، وما من أحد يلتفت للحديث إلى «أغسطس» . والنساء الجميلات اللواتي احتضنهن بين ذراعيه فيما مضى في جو الموسيقى والشمبانيا يَمُرُّنَّ عليه في مواكبهن ، فيستقر الغبار الذي تثيره مركباتهن على ثيابه .

إلا أن ذلك الخواء المخيف والوحدة التي خنقته وسط الترف الذي كان يعيش فيه ، تلاشيا الآن تماما ، وحينما يتوقف عند ظل بوابة ليحتمى لحظة من قيظ الشمس أو عندما يطلب جرعة ماء من فناء مبنى متواضع ، كان يتعجب من الفظاظة والغلظة اللتين يعامله بهما الناس ، أولئك الناس أنفسهم الذين كانوا يستجيبون من قبل لكلماته المتعجرفة اللامبالية في عرفان بالجميل وبعيون متألفة . ومع هذا كله كان مسرورا متأثرا مبتهجا بمرأى كل إنسان ، وكان يحب الأطفال الذين يشاهدهم وهم يلعبون أو يذهبون إلى المدرسة ، كما كان يحب العجائز من الرجال والنساء جالسين على الأرائك أمام منازلهم الصغيرة ، يدفنون أيديهم المتغضنة في الشمس . فإذا أبصر شابا يتابع فتاة بنظرات مشتاقة ، أو عاملا يعود في الليلة التي تسبق عطلته ، ويحتضن أطفاله بين ذراعيه ، أو طبيبا بارعا أنيقا يستقل مركبته في هدوء واستعجال ، حريصا على مرضاه أو حتى حين يرى بغيا تنتظر إلى جانب أحد أعمدة النور ، متأهبة لأن تهب الحب ، حتى وإن كان له ، وهو المنبوذ

من المجامع . . . هؤلاء جميعا كانوا إخوانه وأخواته ، وكل منهم يطوى صدره على ذكرى أم محبوبة ، أو على خلفية أفضل مما هو فيه ، أو على علامة مستترة على مصير أرفع وأنبل ، وكان كل منهم عزيزا مرموقا في عينيه ، يمنحه غذاء للفكر ، ولا يرى فيهم أحدا أسوأ منه حالا .

واعترزم « أغسطس » أن يجوب خلال العالم ، وأن يبحث عن مكان يستطيع أن يكون فيه خادما للناس ، وبهذا يظهر ما يمكنه لهم من حب . وكان عليه أن يتعود على هذه الحقيقة ، وهى أن مظهره لم يعد مما يسعد أحدا ؛ إذ تهدلت وجنتاه ، وكانت ثيابه وحذاؤه لا يليقان إلا بمتسول . . . بل إن صوته ومشيته فقدتا جاذبيتهما التى كانت تبهج الناس وتسعدهم فى يوم من الأيام . كان الأطفال يخافون منه بسبب لحيته الكثة الطويلة التى وخطها الشيب ، وأصحاب الملابس الأنيقة يتحاشونه أن يلوث ثيابهم ، أما الفقراء فكانوا يرتابون فيه بوصفه غريبا يمكن أن ينتزع منهم اللقيات التى تقيم أودهم . وعلى هذا ، كان من العسير عليه أن يسدى خدمة لأحد . إلا أنه كان يتعلم ، ولا يسمح لشيء أن يصيبه بالقنوط . فكان يساعد طفلا صغيرا على أن يمد يده لتبلغ مزلاج باب لا يستطيع أن يصل إليه ، وأحيانا أخرى كان يجد انسانا فى حالة أسوأ من حالته ، كأن يكون كسيحا أو ضريرا يستطيع أن يساعده ، وأن يرفع من روحه المعنوية قليلا أثناء الطريق ، فإذا لم يستطع أن يفعل ذلك أعطى القليل الذى يملكه مبتهجا ، ربما كانت نظرة مشرقة مشجعة ، أو تحية أخوية ، أو لمحة تدل على الفهم والتعاطف . وتعلم من تجولاته أن يستشف من ملامح الناس ما يتوقعونه منه ، وما يمكن أن يسرهم : فقد يحبى أحدهم تحية عالية مرحلة ، وقد يمنح الآخر نظرة هادئة ، أو إذا رأى أن شخصا يريد أن يخلو إلى نفسه ، تركه منفردا دون

إزعاج ، وازدادت دهشته يوما بعد يوم من مقدار الشقاء الموجود في العالم ، ومع ذلك يبدو الرضا على الناس ، وكان من دواعي سروره وغبطته أن يرى دائما أن كل مصيبة يعقبها الضحك ، وعقب كل موت تتعالى أغنية لطفل ، وإثر كل جشع ووضاعة فعلة من أفعال المجاملة ، أو دعاية ، أو كلمة غراء ، أو ابتسامة .

كانت الحياة الإنسانية رائعة في ترتيبها الحسن . فإذا انعطف عند ركن من أركان شارع وشاهد طائفة من التلاميذ يتواثبون صوبه ، رأى كيف تتألق الشجاعة والفرح الحى ونضارة الشباب في عيونهم جميعا . ولو أنهم ضايقوه وعذبوه قليلا ، لم يكن ذلك سيئا كل سوء ، بل كان يلتمس لهم الأعدار . وإذا لمح صورته في نافذة حانوت أو في مياه نافورة للشرب ، رأى أنه قد أصبح شيخا امتلأ وجهه بالتجاعيد ، رث الثياب ، أشعث الهيئة . كلا . . لم تعد المسألة أن يسر الناس بمرآه ، أو أن يكون له سلطان عليهم ، حسب ما كان له . وما أشد اعتباره حين يرى الآخرين يناضلون عبر السبل التي سلكها من قبل ، ويعتقدون أنهم يحرزون تقدما ، وحين يشاهد كيف يسعى كل إنسان إلى هدفه متلهفا ، وفي كثير من القوة والفخر والفرح كان هذا كله يبدو لعينه دراما مذهشة .

وها هو ذا الشتاء يقبل ، يعقبه الصيف مرة أخرى ، ويرقد « أغسطس » مريضا فترة طويلة في مصحة خيرية ، وهنا استمتع صامتا شاكرا . . بمرأى التعساء من الناس يتشبثون في إصرار بالحياة ، ويتنصرون على الموت . وكان من أروع الأشياء أن يرى الصبر مرتسما على وجوه المرضى المصابين بعلى خطيرة ، وتزايد الفرحة المشرق بالحياة في عيون الناقهين . كما كان جميلا أيضا ذلك الهدوء والوقار المرتسمان على وجوه الموتى . . وأجل من هذا كله كان

الحب والصبر اللذان تبديهما الممرضات الجميلات الرحيمات ، إلا أن هذه الفترة انتهت أيضا ، وهبت رياح الخريف . وواصل « أغسطس » تجواله في وجه الشتاء ، واستولى عليه نوع غريب من نفاد الصبر ، حين رأى أن تقدمه يسير في ببطء لامتناه ؛ ذلك أنه كان يريد أن يطوف بكل أنواع الأماكن ، وأن ينظر في عيون كثير من الناس . وكان رأسه قد اشتعل شيئا ، وعيناه تبتسمان واهنتين وراء جفون حمراء ملتهبة ، كما أخذت ذاكرته تضعف شيئا فشيئا ، بحيث بدا له أنه لم يشاهد العالم أبدا مختلفا عما كان عليه في يومه ، ولكنه كان راضيا به ، ويعتقد أنه عالم رائع جدير بالحب ..

وفي مستهل الشتاء ، وصل إلى المدينة . كان الجليد ينهمر على الشوارع المعتمة ، وكان بعض الصبيان الأشرار يقدفون العابر بكرات الثلج ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كان سكون المساء مخيبا على كل شيء . وشعر « أغسطس » بنصب شديد عندما بلغ شارعا ضيقا بدا مألوفا له ، وكذلك رأى شارعا آخر . وهناك وجد نفسه واقفا أمام بيت أمه ، وبيت أبيه الروحي « بنسفاجنر » ، وكان البيتان ضئيلين عتيقين تحت ذلك السيل المنهمر من الجليد . غير أن نافذة أبيه الروحي الوحيدة كانت تسطع بنور أحمر يومض مرحبا في ليل الشتاء .

ودخل « أغسطس » ، وطرق باب حجرة المعيشة ، فأقبل الرجل العجوز الضئيل لمقابلته ، وقاده صامتا إلى داخل الحجرة ، وكانت دافئة هادئة ، وفي المدفأة كان يشتعل قبس من نار متوهجة .

سأله أبوه الروحي : « أنت جائع ؟ »

غير أن « أغسطس » لم يكن جائعا ، فاكتمى بالابتسام وهز رأسه .

قال أبوه الروحي : « ولكن ، لابد أنك متعب » وبسط سجاده الفراء العتيقة على الأرض ، وهنالك تلاصق شخصان عجوزان ، جعلتا ينظران إلى النيران .

- قال أبوه الروحي : « لقد قطعت طريقا طويلا » .

« آه ! كان ذلك رائعا ، ولم أشعر بالتعب إلا الآن فحسب . هل أستطيع النوم هنا ؟ وسأرحل غدا »

- « طبعاً . . بكل تأكيد . ولكن ، ألا تريد أن تشاهد الملائكة يرقصون مرة أخرى ؟ »

- « الملائكة ؟ بلى ، هذا شيء أحبه جداً ، لو عدت طفلاً مرة أخرى » .

فواصل أبوه الروحي حديثه قائلاً : « لم ير أحدنا الآخر منذ وقت بعيد ! لقد أصبحت وسيماً ، وتألقت عيناك بالعطف والعذوبة كما كانت تماماً في ذلك الزمن القديم عندما كانت أمك لاتزال حية . وإنه لظرف منك أن تزورنى » .

وجلس المتجول بأسماله البالية هادئاً إلى جانب صديقه . لم يشعر من قبل بمثل هذا الإرهاق الذى يشعر به الآن ، ودارت رأسه من وهج النار والدفء اللذيذ الذى يشمل المكان ، فلم يعد يستطيع التمييز بوضوح بين اليوم وبين الماضى . فقال :

« أبى الروحي بنسفاجنر ، لقد عدت شقياً مرة أخرى ، وهاهى ذى أمى تصبح فى المنزل . ينبغى أن نتحدث إليها وأن نخبرها بأننى سأكون ولداً طيباً من الآن فصاعداً ، أترأى ستفعل ذلك ؟ »

قال أبوه الروحى : « سأفعل ، ولكن لاتزعج نفسك ؛ فإنها تحبك . » وهنا خمدت النار ، وأخذ « أغسطس » يتفرس فى الحمرة المعتمة بعينين واسعتين ينشاهما النعاس كما كان يفعل أثناء طفولته . ووضع أبوه الروحى رأسه فى حجره ، وانبعثت موسيقا رقيقة أثرية ، وانسابت فى نعومة وسحر خلال الحجرة التى يشملها الظلام ، وحلقت آلاف الأرواح الدقيقة المتألقة أزواجا أزواجا ، وأخذ يدور بعضها حول البعض الآخر فى تشكيلات منتظمة ، تغمرها السعادة . وجعل أغسطس يراقبها وينصت إلى تلك الموسيقا الساحرة ، وقد فتح إحساسه الطفولى المتلقى على مصراعيه عائدا إلى فردوسه المفقود .

وخيل إليه ذات مرة أن أمه تناديه ، ولكنه كان فى حالة من الإرهاق الشديد ، كما أن أباه الروحى وعد بالتحدث إليها ، فعندما غلبه النعاس ، طوى أبوه الروحى راحتيه ، وجلس مصغيا إلى جانب القلب الذى سكنت دقاته ، حتى شمل الحجرة ظلام تام !



زهرة السوسن

١٩٦٦

اعتاد « أنسلم »

وهو في ريعان

طفولته أن يمرح

زهرة السوسن

ويلعب في الحديقة الخضراء ، وكانت إحدى زهور أمه وتدعى « السوسنة حاملة السيف » هي الزهرة المحببة لديه ، فكان يضغط بوجنته على أوراقها الطويلة الزاهية الاخضرار ، ويلمس أطرافها الحادة بأنامل تلمس الكشف وينشق بعمق أريج أكمامها الرائعة الكبيرة ، ويطيل إليها التأمل لحظات إثر أخرى .

وفي الداخل ، كانت ترتفع من قاع الزهرة الأزرق الشاحب صفوف طويلة من الأصابع الصفراء ، وبين هذه الصفوف يمتد معبر لامع يتوغل في الأعماق ويصل إلى الكم وإلى السر الأزرق العميق الذي تضمه الزهرة . كان يحب هذه الزهرة حبا جما ، وكان الكشف عن خباياها لعبته المفضلة ، وفي بعض الأحيان ، كانت أعضاؤها الرقيقة المستقيمة الصفراء تتراءى له وكأنها سياج ذهبي في حديقة ملك ، ويراه تارة أخرى صفا مزدوجا من أشجار الأحلام الفاتنة التي لم تمسها الأقسام ، وبينها يمتد ذلك المعبر المستسر بعروقه الحية البراقة المتشابكة ، الرقيقة كخيوط من زجاج ، وهناك في الخلف يغر الكهف فماً واسعاً ، والسحر الممتد بين الأشجار الذهبية

يضيع في العمق اللامتناهى لهوات لا يدركها الخيال ، وثمت قبة بنفسجية تنحني من جلال ملكى فوقها ، وتلقى ظلالا نحيلة سحرية على تلك الأعجوبة الصامتة المرتقبة . كان أنسلم يعلم أن هذا هو ثغر الزهرة ، وأن وراء هذا البهاء الأصفر المترف الذى تتحلى به الهوة الزرقاء ، هنالك يحيا قلبها وأفكارها ، وعبر ذلك الممر اللامع الجميل بعروقه الزجاجية تجرى أنفاسها وأحلامها عُذُوًا ورواحا .

والى جانب الزهرة الطويلة كانت تنبثق براعم أصغر لم تفتتح أكمامها بعد ، وهى تستوى على سوق متينة مكتنزة العصارة فى كتوس صغيرة ذات بشرة بنية ضاربة إلى الاصفرار ، ومنها تشق النورات الجديدة طريقها صاعدة فى صمت وعنفوان ، ملفوفة بإحكام فى أوراق خضراء وبنفسجية فاتحة ، إلا أن البنفسج الداكن الجديد ، منتصبا ملفوفا بعناية ، يطل من نقاط رقيقة ، بل إن هذه البتلات الصغيرة الملفوفة بإحكام تكشف عن شبكة من العروق ومن مئات العلامات الخفية .

وفى الصباح ، عندما يغادر المنزل نشطا بعد أن أخذ قسطه الوافر من النوم والأجلام والعوالم الغريبة . هنالك تقف الحديقة فى انتظاره ، دائمة التجدد والتغير ، فحيث كانت هناك بالأمس نواة زرقاء متماسكة ملفوفة بإحكام تطل من غمدها الأخضر ، تتدلى الآن نحيلة زرقاء كالهواء بتلة صغيرة ذات لسان وشفة ، تبحث جاهدة عن الشكل المنحنى الذى طالما حلمت به . وفى آخر القاع حيث كانت مشبكة فى صراع صامت مع غمدها ، كان نهاؤها الأصغر الرقيق فى مرحلة الإعداد ، ذلك المعبر اللامع المعروف ، وتلك الهاوية العطرة القصية فى أغوار الروح . وربما تفتحت فى أوائل الظهيرة ، أو لعلها تفتتح فى المساء تلك الخيمة الحريرية الزرقاء القائمة

فوق الغابة الذهبية ، ومن الهاوية السحرية تتردد في أنفاسها الصامتة
أحلامها الأولى ، وأفكارها وأغانيها .

وجاء يوم امتلأت فيه الحشائش بالزهور الزرقاء الشبيهة بالأجراس . جاء
يوم انبعثت فيه فجأة أصوات جديدة ، وأريج جديد ، وفوق الأوراق التي
أضفت عليها الشمس حمرة داكنة ، تدلت وردة الشاي الأولى ، ناعمة
ذهبية الاحمرار . وجاء يوم اختفت فيه أزهار السوسن حاملة السيوف . .
ذهبت جميعا فلم يعد لها أثر ، ولم تعد هناك مسالك ذات أسيجة ذهبية
تفضي في رقة إلى أسرار الأعماق العاطرة ، وإنما انتصبت الأوراق الحادة
الباردة متصلة معادية ، إلا أن ثمار التوت الحمراء كانت تنضج في الأجسام .
وفوق أزهار النجمات أخذت تطوف في مرج وانطلاق فراشات جديدة لم
يسمع أحد عنها من قبل .

وتحدث آنسلم إلى الفراشات وإلى الحصى ، وعقد صداقات مع
الخنافس والسحالي ، وكانت الطيور تروى له حكايات عن الطيور ، وكانت
نباتات السرخس تكشف له عن مخازنها من البذور البنية المختبئة تحت سقف
مخزنها العملاق ، وأما شظايا الزجاج الأخضر والبللوري التي تلتقط أشعة
الشمس ، فكانت تتحول بالنسبة إليه إلى قصور وجنات ، وحجرات تحتوى
على كنوز متلائة . وعندما تختفى الزنابق تزدهر أزهار « أبو خنجر » ،
وعندما تصبح زهور الشاي تتحول أزهار العليق إلى اللون البنى . الأشياء
جميعا تتبادل الأماكن ، وهناك دائما ما يذهب ، ودائما ما يجيء ، تختفى لتأتى
مرة أخرى في موسمها ، وحتى في تلك الأيام الرائعة المخيفة ، حين تصفو
الرياح الباردة خلال غابة الصنوبر ، يكون حفيف الأوراق المتساقطة متهالكا
في الحديقة كلها ، حينذاك تأتى أغنية أخرى ، تجربة جديدة ، حكاية . . .

حتى يهدأ كل شيء مرة أخرى ، فيسقط الجليد خارج النوافذ ، وتنمو غابات النخيل على الأحواض ، ويخلق ملائكة يحملون أجراسا فضية عندما يأتي المساء ، ويفوح من القاعة أريج الفاكهة المجففة . إن الصداقة والثقة لا يخونان أبدا في هذا العالم الطيب ، وعندما تتألق أزهار العشب على غير توقع بجانب أوراق اللبلاب السوداء ، تبدو وكأنها كانت هناك طوال الوقت ، حتى يحدث ذات يوم ، لم يتوقعه أحد على الإطلاق ، ومع ذلك يحدث دائما على النحو الذي ينبغي له أن يحدث به ، ويلقى دائما الترحيب نفسه ، يحدث ذات يوم أن يطل أول برعم مدبب مائل إلى الزرقة من ساق «السوسنة حاملة السيف» مرة أخرى .

كان كل شيء جميلا في عيني «آنسلم» كان كل شيء بديعا ، ودودا ، مألوفاً ، إلا أن أوج لحظات السحر والنعمة يأتي كل عام لحظة ظهور أول «سوسنة حاملة السيف» . ففي لحظة من لحظات طفولته المبكرة ، قرأ في كأسها كتاب العجائب لأول مرة ، ومن شذاها وزرقتها المتحولة المتبدلة صدرت إليه نداءات تدعوه إلى العالم الرحيب ، وفيها وجد مفتاحه . وهكذا رافقته «السوسنة حاملة السيف» خلال أعوام البراءة كلها . وكانت تبدو له جديدة مع كل صيف جديد ، فتزداد ثراء بما تنطوى عليه من سر وتأثير ، هناك أزهار أخرى لها ثغور ، وبعضها ينشر الأريج والأفكار ، وبعضها الآخر يغري النحل والخنفس بالدخول إلى حجراتها الصغيرة الحلوة ، غير أن السوسنة الزرقاء كانت بالنسبة للصبي أعز وأهم من أية زهرة أخرى ؛ فقد كانت له رمزاً ومثلاً على كل شيء يستحق التأمل والإعجاب . وعندما كان يحدق في قدحها ، وعندما يدع أفكاره في هذا الاستغراق تتابع ذلك المعبر الحالم المتألق الممتد من المكان المعشوشب الأصفر العجيب متجها

صوب الشفق الباطنى للزهرة ، كانت روحه تنفذ عبر البوابة التى يتحول عندها الظاهر إلى مغارقة ، والرؤية إلى وهم . وفى الليل أيضا كان يحلم بهذا القدرح المزهري ، فكان يراه يفتح أمامه على نحو سحرى ، كما تفتح بوابة قصر فى الجنة ، فيجتازها ممتطيا صهوة جواد ، أو طائرا على أجنحة البجع ، ويطير معه العالم كله ويركب وينزلق فى لطف مشدودا بالسحر صوب الهاوية الفاتنة ، حيث تجد كل أمنية تحققها ، وحيث يصدق كل تلميح .

كل ظاهرة على الأرض ليست سوى استعارة ، وكل استعارة عبارة عن بوابة مفتوحة يمكن أن تجتازها الروح - إن كانت على استعداد - إلى باطن العالم ، حيث أكون أنا وأنت ، والليل والنهار ، شيئا واحدا . وإلى هذه البوابة المفتوحة ، يأتى الإنسان أثناء حياته ، ويصادفها هنا أو هناك فى طريقه ، وما من انسان إلا وقد خطر له ذات مرة أن كل ما هو مرئى لا يعدو أن يكون استعارة ، ووراء هذه الاستعارة تحيا الروح ، والحياة الأبدية .

ومن المؤكد أن قلة من الناس هم الذين يجتازون هذه البوابة ، وينصرفون عن وهمهم الجميل لقاء الواقع الذى يتصورونه كامنا فى الداخل .

وهكذا كان كأس السوسنة بالنسبة لأنسلم هو ذلك السؤال المفتوح غير المنطوق الذى تسعى إليه روحه جاهدة فى توقع متزايد بحثا عن إجابة شافية ، إلا أن تعدد الأشياء الفاتن كان يصرفه عن هذا مرة بعد أخرى ، فى حديثه وألعابه مع الزجاج والحجارة ، ومع الجذور ، والأجام ، والحيوانات ، ومع كل ما يحتويه عالمه من ألوان الحضور الودود . وطالما استغرقه التأمل العميق لنفسه ، فكان يجلس مغمض العينين غارقا فى أعاجيب جسده ، شاعرا حين يبتلع أو يغنى أو يتنفس - بأحاسيس غريبة ، ودوافع وإحياءات

فى فمه وحلقه ، متحسسا هنا أيضا السبيل والبوابة حيث يمكن أن تذهب روح إلى روح . ولاحظ فى اندهاش الأشكال الملونة الحافلة بالمعانى والتى تبدى له خارجه من تلك الظلمة القرمزية عندما يغمض عينيه نُقْطًا ، وأنصاف دوائر زرقاء أو حمراء قائمة تتخللها خطوط زجاجية فاتحة .

وفى بعض الأحيان كان يدرك فى وثبة مباغته سعيدة مئات الصلات الدقيقة بين العين والأذن ، بين الشم والذوق ، وكان يشعر خلال لحظات عابرة جميلة أن النغمات والأصوات وحروف الأبجدية ترتبط وتتشابه مع الأحمر والأزرق ، ومع الجان واللين ، أوقد يتعجب حين يشم نباتا معينا ، أو ألواح اللحاء الأخضر ، كيف يرتبط الشم بالذوق ارتباطا وثيقا ، وكيف يتداخل أحدهما فى الآخر ليصبحا شيئا واحدا .

الأطفال جميعا بهذا ، وإن لم يكن ذلك بنفس هذه الشدة والرهافة ، وكثير منهم يفارقهم هذا الشعور وكأنه لم يوجد أبدا ، حتى قبل أن يتعلموا حروفهم الأولى . وبعضهم يحتفظ بسر الطفولة زمنا طويلا ، وتبقى معهم أثارة منها وصدى لها حتى تشيب رءوسهم وينال النصب منهم كل منال .

والأطفال جميعا ، طالما ظلوا داخل هذا السر يشغل أرواحهم هذا الشيء الهام الفريد بلا انقطاع ، أعنى انشغالهم بأنفسهم وصلتهم بالعالم الخارجى التى تتسم بالمفارقة . والباحثون والحكماء يعودون إلى هذا الشاغل فى أعوام نضجهم ، إلا أن معظم الناس ينسون إلى الأبد ويهجرون فى وقت مبكر هذا العالم الباطنى وأهميته الحققة ، وتراهم يتخبطون طيلة حياتهم فى متاهة الشهوات والهموم والأهداف المتعددة الألوان ، وهى شهوات وهموم وأهداف لا مكان لأى منها فى أعماق أعماق وجودهم الباطنى ، ولا يؤدى أى منها مرة

وفي فورة شديدة شق الشاب طريقه في الحياة التي خيل إليه أنها لم تبدأ إلا الآن ، أما عالم الاستعارة فقد خلعه من ذاكرته ، ونسيه تماما ، وهذه رغبات جديدة ومسالك جديدة تمد له حبال الإغراء . وظلت هالة الطفولة تحوم حوله ، بعينييه الزرقاوين ، وشعره الناعم المسترسل ، ولكنه كان يثور إذا ذكر بها ، ولهذا قص شعره ، واصطنع هيئة يبدو فيها مقتحما خشنا على قدر الإمكان . وفي سنوات الدراسة الثانوية المزعجة شق طريقه كالعاصفة لا يستطيع أحد أن يتنبأ بتصرفاته مقدما ، فأحيانا يكون الطالب المجد والصديق المخلص ، وأحيانا أخرى ينطوى على نفسه وحيدا منعزلا ، وهو يدفن نفسه في الكتب حتى ساعة متأخرة من الليل تارة ، وهو وحشى المزاج وصاحب عرييد تارة أخرى ، وكان لابد أن يعيش في المدرسة بعيدا عن المنزل ، فكان لا يراه إلا في مناسبات قصيرة عندما يأتي لزيارة أمه . وكان قد طرأ عليه تغير كبير ، فطالت قامته ، وتأنق هندامه ، وكان يصحب معه الأصدقاء أو الكتب التي كانت تختلف في كل مرة ، فإذا تمشى خلال الحديقة القديمة ، كانت تبدو لنظرته الحائرة ضئيلة صامتة . ولم يعد يقرأ حكايات في عروق الأحجار والأوراق المتعددة الألوان ، كما لم يعد يرى الأبدية مستقرة في مستودع السر الأزرق لزهرة السوسن .

التحق آنسلم بالمدرسة الثانوية ثم بالكلية ، وجاء إلى البيت بقلنسوة حمراء ، ثم تلتها واحدة صفراء ، وشعيرات خفاف فوق شفته العليا ، ثم بلحية صغيرة . وكان يحمل معه كتباً بلغات أجنبية . وذات مرة أحضر معه كلبا . وفي جيب سترته الداخلى كان يضع أحيانا قصائد سرية ، وأقوال الحكماء القدماء ، أو صورا لفتيات جميلات ، وخطابات منهن . وعاد مرات من رحلات إلى بلاد بعيدة ، ومن أسفار بحرية على سفن كبيرة ،

وفي فورة شديدة شق الشاب طريقه في الحياة التي خيل إليه أنها لم تبدأ إلا الآن ، أما عالم الاستعارة فقد خلعه من ذاكرته ، ونسيه تماما ، وهذه رغبات جديدة ومسالك جديدة تمد له حبال الإغراء . وظلت هالة الطفولة تحوم حوله ، بعينييه الزرقاوين ، وشعره الناعم المسترسل ، ولكنه كان يثور إذا ذكر بها ، ولهذا قص شعره ، واصطنع هيئة يبدو فيها مقتحما خشنا على قدر الإمكان . وفي سنوات الدراسة الثانوية المزعجة شق طريقه كالعاصفة لا يستطيع أحد أن يتنبأ بتصرفاته مقدما ، فأحيانا يكون الطالب المجد والصديق المخلص ، وأحيانا أخرى ينطوى على نفسه وحيدا منعزلا ، وهو يدفن نفسه في الكتب حتى ساعة متأخرة من الليل تارة ، وهو وحشى المزاج وصاحب عرييد تارة أخرى ، وكان لابد أن يعيش في المدرسة بعيدا عن المنزل ، فكان لا يراه إلا في مناسبات قصيرة عندما يأتي لزيارة أمه . وكان قد طرأ عليه تغير كبير ، فطالت قامته ، وتأنق هندامه ، وكان يصحب معه الأصدقاء أو الكتب التي كانت تختلف في كل مرة ، فإذا تمشى خلال الحديقة القديمة ، كانت تبدو لنظرته الحائرة ضئيلة صامتة . ولم يعد يقرأ حكايات في عروق الأحجار والأوراق المتعددة الألوان ، كما لم يعد يرى الأبدية مستقرة في مستودع السر الأزرق لزهرة السوسن .

التحق آنسلم بالمدرسة الثانوية ثم بالكلية ، وجاء إلى البيت بقلنسوة حمراء ، ثم تلتها واحدة صفراء ، وشعيرات خفاف فوق شفته العليا ، ثم بلحية صغيرة . وكان يحمل معه كتباً بلغات أجنبية . وذات مرة أحضر معه كلبا . وفي جيب سترته الداخلى كان يضع أحيانا قصائد سرية ، وأقوال الحكماء القدماء ، أو صورا لفتيات جميلات ، وخطابات منهن . وعاد مرات من رحلات إلى بلاد بعيدة ، ومن أسفار بحرية على سفن كبيرة ،

ورجع ثانية بعد أن أصبح مدرسا شابا يضع قبعة سوداء على رأسه ، ويرتدى قفازين داكنين ، وكان جيرانه القدماء يلمسون أطراف قبعاتهم تحية له ، ويدعونه بالأستاذ وإن لم يبلغ بعد هذه المرتبة . وجاء مرة أخرى يرتدى ثيابا سوداء ويسير نحىلا حزينا وراء العربية البطيئة التى ترقد فيها أمه فى كفن مغطى بالزهور . ولم يعد بعد ذلك إلا نادرا .

وفى العاصمة حيث أصبح « أنسلم » مدرسا ذا سمعة أكاديمية رفيعة ، كان سلوكه لا يخالف سلوك أهل الدنيا فى شىء ، فكان يرتدى قبعة أنيقة ، وسترة ، وكان جادا أو مرنا حسب ماتقتضى الظروف ، ويراقب العالم بعينين يقظتين ، يشوبهما شىء من التعب ، كان سيدا مهذبا وضليعا فى تخصصه كما أراد أن يكون ، إلا أن الأمور تحولت بالنسبة إليه تحولا جديدا ، كما حدث له فى نهاية طفولته . فقد أحس فجأة أن أعواما طويلة قد انقضت وتركته قائما فى وحدة عجيبة ، لا ترضيه طريقة فى الحياة اشتاق إليها دائما . لم يشعر بالسعادة الحقة من كونه أستاذا ، ولم يكن مما يشبع نفسه أن يحبه المواطنون والطلبة باحترام . كان هذا كله شيئا مبتدلا باليا . وأصبحت السعادة مرة أخرى شيئا بعيدا فى المستقبل ، والطريق يبدو له الآن حارا مغبرا محفوا بالمخاطر .

وفى ذلك الحين ، كان أنسلم يتردد كثيرا على بيت صديق له أخت يراها « أنسلم » على شىء من الجاذبية ، وكان قد كف عن الجرى وراء الوجوه الجميلة ، ومن هذه الناحية أيضا كان قد تغير ، فهو يشعر أن سعادته ينبغى أن تكون على نحو خاص ، ولا ينبغى أن يتوقعها وراء كل نافذة ، وكانت أخت صديقه قد وقعت من نفسه موقعا حسنا ، وكثيرا ماخطر له أنه يحبها حبا صادقا ، ولكنها كانت فتاة غريبة الأطوار ، فكل حركة تأتى بها ، وكل

كلمة تبدو منها كانت تحمل طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، ولم يكن من السهل دائما أن يتناغم المرء إيقاع تصرفاتها ، وفي الأمسيات ، عندما كان أنسلم يذرع بيته الموحش جيئة وذهابا ، منصتا في تأمل إلى وقع خطواته التي يتردد صداها في الحجرات الخاوية ، كان يناضل في نفسه نضالا شديدا من أجل هذه المرأة ؛ فقد كانت أكبر سنا من المرأة التي يود أن تكون زوجا له . وكانت متقلبة المزاج بحيث يصعب عليه أن يعيش معها وأن يواصل طموحاته الأكاديمية التي لم تكن تتعاطف معها على الإطلاق ، كما أنها لم تكن قوية البنيان أو موفورة الصحة ، ولا تستطيع على الأخص أن تتحمل الحفلات والصحبة في سر ، وقد فضلت أن تعيش حياة هادئة وحيدة بين الزهور والموسيقا والكتب ، وتركت العالم يسير على هواه ، أو يأتي إليها إذا لم يجد عن ذلك بدا . وأحيانا كانت حساسيتها من الرهافة بحيث إذا جرح مشاعرها شيء غريب ، انفجرت باكية بدموع غزيرة ، ثم لا تلبث أن تتوهج بعد ذلك بسعادة صامتة خفية ، فكان من يراها في هذه الأحوال المتقلبة ، يدرك مدى الصعوبة التي يجدها المرء إذا أراد أن يعطى شيئا لهذه المرأة - الغريبة الفاتنة أو أن يعنى شيئا إليها . وكان أنسلم يعتقد أحيانا أنها تحبه ، ولكنها كانت تبدو أحيانا أخرى أنها لا تحب أحدا ، وإنما هي تعامل الجميع في لطف ومودة ، وأنها لا تريد إلا أن يدعها الناس في سلام . إلا أنه كان يطلب من الحياة شيئا مختلفا كل الاختلاف ، وإذا كان لابد له من أن يتزوج ، فينبغي أن تشيع الحياة والإثارة والخفاوة في بيته :

قال لها : « أيريس العزيرة ، لو أن الحياة كانت مختلفة في تربيتها ! ولو لم يوجد شيء إلا عالمك البديع اللطيف من الزهور والأفكار والموسيقا ، إذن لما تمنيت أنا أيضا سوى أن أقضى حياتي كلها معك ، وأن أستمع إلى

وذاث يوم عاد السيد آنسلم من إحدى رحلاته الموحشة . فوجد حجرات الدراسة قاحلة ، باردة ضيقة بحيث اندفع مسرعا إلى بيت صديقه ، وقد عقد عزمه على أن يخاطب آيريس الجميلة .

قال لها : « آيريس ، أنا لا أريد أن أمضى في الحياة على هذا النحو وقد كنت دائما صديقتي المخلصة ، وسأخبرك بكل شيء : أنا في حاجة إلى زوجة ، وإلا فإن حياتي تبدو خاوية لأمعنى لها . وهل يمكن أن تكون لى زوجة سواك يازهرتى الحبيبة ؟

فهل تقبلين يا آيريس ؟ سيكون لك ماتشائين من الأزهار ، وستكون لك أجل حديقة . أأنت على استعداد للحياة معى ؟ »

ونظرت آيريس في عينه هادئة متدبرة : لم تبسّم ، ولم تتصرّج وجنتاها حياء ، بل أجابته بصوت حازم :

« آنسلم ، إن سؤالك لم يفاجئنى . أنت عزيز على ، وإن لم أفكر قط في أن أكون زوجتك . ولكن انظر يا صديقى ، أنا أطلب الكثير من الرجل الذى أتزوجه . ومطالبى أكبر كثيرا من معظم النساء . أنت تعرض على زهورا ، وماتعنيه بذلك شيء حسن . ولكننى أستطيع أن أعيش بلا زهور ، وبلا موسيقا أيضا ، وأستطيع أن أستغنى عن أشياء كثيرة ، إذا اقتضى الأمر، غير أن هناك شيئا واحدا لا أستطيع الاستغناء عنه : لا أستطيع أن أعيش يوما واحدا لا تكون فيه الموسيقا التى تعزف في قلبى هى السائدة . وإذا كان لابد لى من أن أعيش مع رجل ، فينبغى أن يكون رجلا تتناغم موسيقاه الداخلية مع موسيقاى فى جمال رقة ، وأن تكون رغبته الوحيدة هى أن تأتى موسيقاه الخاصة نقية صافية بحيث يمكن أن تتمزج بموسيقاى .

وذاث يوم عاد السيد آنسلم من إحدى رحلاته الموحشة . فوجد حجرات الدراسة قاحلة ، باردة ضيقة بحيث اندفع مسرعا إلى بيت صديقه ، وقد عقد عزمه على أن يخاطب آيريس الجميلة .

قال لها : « آيريس ، أنا لا أريد أن أمضى في الحياة على هذا النحو وقد كنت دائما صديقتي المخلصة ، وسأخبرك بكل شيء : أنا في حاجة إلى زوجة ، وإلا فإن حياتي تبدو خاوية لأمعنى لها . وهل يمكن أن تكون لى زوجة سواك يازهرتى الحبيبة ؟

فهل تقبلين يا آيريس ؟ سيكون لك ماتشائين من الأزهار ، وستكون لك أجل حديقة . أأنت على استعداد للحياة معى ؟ »

ونظرت آيريس في عينه هادئة متدبرة : لم تبسّم ، ولم تتصرّج وجنتاها حياء ، بل أجابته بصوت حازم :

« آنسلم ، إن سؤالك لم يفاجئنى . أنت عزيز على ، وإن لم أفكر قط في أن أكون زوجتك . ولكن انظر يا صديقى ، أنا أطلب الكثير من الرجل الذى أتزوجه . ومطالبى أكبر كثيرا من معظم النساء . أنت تعرض على زهورا ، وماتعنيه بذلك شيء حسن . ولكننى أستطيع أن أعيش بلا زهور ، وبلا موسيقا أيضا ، وأستطيع أن أستغنى عن أشياء كثيرة ، إذا اقتضى الأمر، غير أن هناك شيئا واحدا لا أستطيع الاستغناء عنه : لا أستطيع أن أعيش يوما واحدا لا تكون فيه الموسيقا التى تعزف في قلبى هى السائدة . وإذا كان لابد لى من أن أعيش مع رجل ، فينبغى أن يكون رجلا تتناغم موسيقاه الداخلية مع موسيقاى فى جمال رقة ، وأن تكون رغبته الوحيدة هى أن تأتى موسيقاه الخاصة نقية صافية بحيث يمكن أن تتمزج بموسيقاى .

فهل تستطيع أن تفعل ذلك يا صديقي ؟ من المرجح أنك لن تكون أكثر شهرة على هذا النحو ، ولن تكتسب مزيدا من الأبعاد ، وسيكون بيتك هادئا ، والغضون التي رأيته فوق جبينك منذ سنوات ، ينبغي أن تزول ، كلا ، يا أنسلم ، لن تسير الأمور على ما يرام ، إن تكوينك يدعوك دائما إلى إضافة غضون جديدة على جبينك ، وإلى أن تخلق باستمرار هموما جديدة ، أما ما أدركه وما أنا عليه ، فلا شك أنك تحبه وتحبه شيئا ممتعا ، ولكنه بالنسبة إليك - كما هو بالنسبة لمعظم الناس - مجرد لعبة جميلة . استمع لي جيدا : إن كل ما يبدو لك الآن لعبة هو الحياة بالنسبة لي ، ولابد أن يكون لك أنت أيضا كذلك ، وكل ما تجاهد من أجله ، وتهتم به هو بالنسبة إلى لعبة ، وليس جديرا في نظري بأن يحيا الإنسان من أجله ، وأنا لن أنغير يا أنسلم ؛ ذلك لأنني أعيش وفقا لقانوني الداخلي ، ولكن أتستطيع أنت تتغير ؟ ولابد من أن تتغير تماما إذا كنت سأصبح زوجتك .

ولم يصدق أنسلم على الكلام ، وقد أخذ بقوة عزمته ، الذي اعتقد دائما أنها ضعيفة متقلبة ، وأخلد إلى الصمت ، ودون تفكير ، حطم زهرة كان قد التقطها من المنضدة بيد عصبية .

وعندما أخذت منه آيريس الزهرة في لطف ، صدمته فعلتها هذه في صميم قلبه كأنها رفض قاطع ، ولكنها ابتسمت له فجأة في مرح وسمر ، وكأنها قد وجدت - على غير توقع - مخرجا من الظلمات .

قالت بصوت لطيف : « عندي فكرة » ، واحمرت وجنتاها أثناء الحديث ، سوف تجدها غريبة ، وستبدو لك على أنها نزوة ، ولكنها ليست كذلك . هل يمكن أن تسمعها ؟ وستوافق على أنها ستحدد الأمر فيما يتعلق بنا ؟ » .

وحلق أنسلم في آيريس دون أن يفهمها ، وقد تبدى القلق في ملامحه الشاحبة ، إلا أن ابتسامتها أجبرته على الثقة في أن يقول : « نعم » .
قالت آيريس وقد أصبحت جادة كل الجدة مرة أخرى وفي الحال :
« سأعهد إليك بمهمة » .

فأجابها أنسلم : « افعلى . . فهذا من حقدك » .
قالت : « هذه مسألة مهمة بالنسبة لى . . . وهى كلمتى الأخيرة ، فهل تقبلها كما تصدر مباشرة عن نفسى ولا تراوغ أو تسامم فيها حتى وإن لم تفهمها لأول وهلة ؟

فوعدها أنسلم . وهنا نهضت وقالت وهى تعطيه يدها : « قلت لى فى كثير من الأحيان : إنك فى كل مرة تنطق فيها اسمى تذكر شيئا منسيا كان مهما ومقدسا فى نظرك ذات يوم . هذه علامة يا أنسلم ، وهى التى اجتذبتك إلى طيلة تلك السنين ، وأنا أيضا أعتقد أنك فقدت ونسيت شيئا مهما ومقدسا فى روحك ، شيئا ينبغى أن يبعث من جديد قبل أن تعثر على السعادة ، وتبلغ ماقدر لك . وداعا يا أنسلم ! إننى أعطيك يدى وأناشدك : اذهب وتأكد من العثور فى ذاكرتك على مايدكرك به اسمى ، وفى اليوم الذى تعيد فيه اكتشاف ذلك الشيء سأذهب معك بوصفى زوجة لك حيثما تشاء ، ولن تكون لى رغبات سوى رغباتك .

وحاول « أنسلم » - وقد أصابه الارتباك والهلح - أن يقاطعها وأن يستبعد طلبه بوصفه نزوة ، إلا أن نظرة واحدة براقته ذكرته بالوعد الذى قطعه على نفسه ، فأخلد إلى الصمت ، وتناول يدها بعينين مطرقتين ، ورفعها إلى شفتيه ، وانصرف

وفى مسيرة حياته ، أخذ على عاتقه مهام كثيرة ، وأنجزها ، ولكن ، لم يكن فيها مثل تلك المهمة الغريبة الهامة ، الرهيبة فى الوقت نفسه . وقد اندفع محاولا التركيز عليها يوما إثر يوم ، حتى نال منه الإجهاد ، وكان يمر عليه دائما وقت يستبد به اليأس والغضب فيتخلى عن هذه المهمة كلها بوصفها فكرة أنثوية مجنونة ، فيرفضها رفضا قاطعا . إلا أنه كان يجد شيئا عميقا فى نفسه لا يوافق عليه ، نوعا من الألم المستتر الخافت أشد الخفوت ، تحذيرا ناعما لا يكاد يتضح ، هذا الصوت الخافت الذى استقر فى قلبه ، كان يعلن أن « آيريس » على حق ، وكان يطلب نفس المطلب الذى طلبته . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت المهمة أصعب ماتكون على رجل العلم ؛ إذ كان من المفروض أن يتذكر شيئا منذ وقت طويل ، وكان عليه أن يهتدى مرة أخرى إلى خيط ذهبي فريد فى نسيج الأعوام الغرقة ، وأن يقبض بيديه ، وأن يقدم لمحبوته شيئا لا يعدو أن يكون أغنية طائر تلاشت ، شعورا بالفرح أو الحزن عند سماع قطعة موسيقية ، شيئا أرهف وأسرع عبورا من فكرة لاجسد لها ، أو حلم لامادة فيه ، أو ضباب الصباح الذى لا شكل له .

وفى بعض الأحيان ، عندما كان ينصرف عن البحث ، ويستسلم لليأس ، كانت تمسه - على غير توقع - نسمة من حديقة بعيدة ، فكان يهمس لنفسه باسم « آيريس » عشر مرات أو يزيد ، بصوت ناعم خفيف كمن يختبر نغمة موسيقية على وتر مشدود . كان يهمس « آيريس . . آيريس » وفى شيء من الألم الخافت ، كان يتحرك شيء فى داخله كما يفتح باب فى منزل مهجور دون سبب ، أو كما ينبعث صرير من دولاب . وكان يستعرض ذكرياته التى يعتقد أنها مخزونة فى ترتيب جيد ، وعندئذ يقع على

كشوف مدهشة مروعة . وكانت كنوز ذكرياته أقل كثيرا مما تصور ، فهناك أعوام مفقودة بأكملها ، فإذا حاول أن يعود إليها وجدها خاوية على عروشها كصفحات بيضاء . ووجد صعوبة كبيرة حين أراد استدعاء صورة واضحة لأمه . كما نسي تماما اسم فتاة كان يغازلها بحرارة في شبابه مدة عام كامل ، وحدث أيضا أن تذكر كلبا كان قد اشتراه صدفة وظل محتفظا به زمنا طويلا ، وقد استغرق تذكره لاسم هذا الكلب يوما بأكمله .

وفي كثير من الألم وفي حزن وخوف متزايدين ، رأى الشاب المسكين مدى تفاهة الحياة التي امتدت وراءه وخواءها ، تلك الحياة التي لم تعد تنتمي إليه ، بل أصبحت غريبة عليه ولا تمت له بصلة ، وكأنها شيء حفظ ذات مرة عن ظهر قلب ولا يستطيع المرء الآن أن يستعيد إلا بصعوبة بضع فقرات لأمعنى لها . وشرع في الكتابة ، كان يريد بذلك أن يضع على الورق راجعا إلى الماضي عاما تلو عام - أهم تجاربه بحيث تبدو لذنه واضحة مرة أخرى . ولكن ، ماذا كانت أهم تجاربه ؟ هل هي عندما عين أستاذا ؟ عندما تسلم شهادة الدكتوراه ؟ عندما كان طالبا جامعا ، أم تلميذا بالمدرسة الثانوية ؟ أو عندما استمتع في ماضيه المنسى بهذه الفتاة أو بتلك ؟ نظر إلى هذا كله مفزعا : أكانت هذه هي الحياة ؟ أكان هذا هو كل شيء ؟ وضبط بيده على جبهته ، وأطلق ضحكة مريرة .

وفي هذه الأثناء ، كان الزمان يجرى ، بل يكاد يطيرا طيارا غير معهود ، انقضى عام ، وبدا له أنه في نفس الموقع بالضبط منذ أن ترك « آيريس » . ومع ذلك ، فقد طرأ تغير عظيم منذ ذلك الوقت ، تغير أدركه الناس جميعا إلا هو . فقد أصبح غريبا تقريبا بالنسبة لعارفيه الذين لاحظوا شروده ، وتبرمه ، وشذوذه ، واكتسب سمعة بأنه شخص غريب الأطوار لا سبيل إلى

التنبؤ بتصرفاته وكانت هذه سمعة سيئة بالنسبة إليه ، ولكنه كان أعزب منذ فترة طويلة ، وفي كثير من الأحيان ، كان ينسى واجباته الأكاديمية ، وكان طلابه ينتظرونه بلا جدوى ، فإذا استغرقه الفكر ، أخذ يتسكع أحيانا في الشوارع ، ماسحا واجهات المنازل ، وغبار النوافذ بسترته الرثة أثناء عبوره . وظن كثير من الناس أنه شرع في معاقرة الخمر . وفي أحيان أخرى كان يتوقف وسط محاضرة يلقيها في قاعة الدرس محاولا أن يتذكر شيئا ما ، وعندئذ تظهر على وجهه فجأة ابتسامة جذابة طفولية على نحو جديد عليه تماما ، ثم يستأنف كلامه في دفع من الشعور يؤثر على كثير من مستمعيه في صميم قلوبهم .

وفي أثناء بحثه اليائس عن شيء من الاستمرارية وسط ماتركته الأعوام الماضية من آثار باهتة ، اكتسب ملكة جديدة لم يكن على وعى بها . إذ حدث المرة بعد المرة - وبصورة متزايدة - أن وجد خلف الذكريات التي يتذكرها ذكريات أخرى ، كجدار قديم نقشت عليه صور قديمة ، ولكن بصور أقدم منها خافية لا يراها أحد . فكان يحاول أن يتذكر شيئا ، ربما كان اسم مدينة أمضى فيها عدة أيام في بعض أسفاره ، أو يوم مولد صديق ، أو أى شيء آخر . وفي أثناء تنقيبه وبحثه خلال قطعة من الماضي وكأنه يفتش في ركام من الحصى والأحجار ، هنالك يحدث له شيء مختلف كل الاختلاف . إذ تهب عليه - دون توقع - نسمة شبيهة بنسمات صبح من أبريل ، أو من ضباب سبتمبر . فيشم عطرا ، ويتذوق نكهة ، ويشعر بأحاسيس رقيقة غامضة هنا أو هناك ، علي بشرته أو في عينيه ، أو داخل فؤاده ، ثم يتذكر رويدا أنه لابد أن يكون هناك يوم ، أزرق دافئ ، أو بارد رمادى ، أو من أى نوع كان ، هذا اليوم قد استقرت ماهيته داخل نفسه ،

وظل عالقا به على هيئة ذكرى مدفونة ، ولم يكن يستطيع أن يضع هذا اليوم من أيام الربيع أو الشتاء في موقعه من ماضيه الواقعي ، لم يكن يستطيع أن يسميه أو يحدد له تاريخا . ربما وقع أيام دراسته بالكلية ، أو لعله أن يكون - من يدري - عندما لم يكن أكثر من طفل في مهده ، إلا أن العطر كان هناك ، كما كان يعلم أن شيئا ما يحيا فيه دون أن يستطيع التعرف عليه أو تعريفه أو تحديد هويته ، وقد يخيل إليه أحيانا أن تلك الذكريات قد ترجع إلى ما وراء الحياة الحاضرة ، في وجود سابق ، وإن كانت هذه الفكرة تثير ابتسامة .

واكتشف « أنسلم » أشياء كثيرة في تجولاته البائسة خلال أغوار الذاكرة . وجد أمورا عديدة أثرت فيه واستولت عليه ، وكثير مما وجده أفزعه وروعه ، إلا أن شيئا واحدا لم يعثر عليه ، وهو ما يعنيه اسم « آيريس » بالنسبة إليه . وفي عذاب بحثه الذي لم ينته إلى شيء ، قصد إلى بيته القديم ذات مرة بغرض الكشف ، فشاهد الغابات والطرقات ، والممرات والأسوار ، ووقف في الحديقة العتيقة التي كان يرتع فيها أثناء صباه ، فأحس بالأمواج تتكسر على قلبه ، والماضي يطوقه كالحلم ، وعاد من هذه الرحلة حزينا صامتا ، وأعلن أنه مريض حتى يصد عن زيارته كل من يريد أن يراه .

إلا أن واحدا من هؤلاء الزوار أصر على الدخول ، وكان صديقه الذي لم يره منذ أن انتهت علاقته بآيريس . ووجد هذا الصديق أنسلم جالسا مشعث الشعر في حجرة مكتبه الكئيبة .

فقال له : « انهض ، وتعال معي . آيريس تريد أن تراك » . فهب أنسلم واقفا على قدميه :

« آيريس ! ماذا حدث لها ؟ أوه ، أنا أعلم ، أنا أعلم ! »

قال صديقه : « أجل ، تعال معى . إنها توشك أن تموت . كانت مريضة منذ زمن طويل » .

وذهبا إلى آيريس التى كانت مضجعة على أريكة . كانت نحيلة خفيفة كطفل . وابتسمت ابتسامة وضاءة بعينين واسعتين ، وناولت يدها الخفيفة البيضاء لأنسلم فرقدت في كفه كأنها زهرة ، وأضاء وجهها كأنها غمرته حالة من الوجد .

قالت : « آنسلم ، أنت ساخط على ؟ لقد عهدت إليك بمهمة صعبة ، وأنا أرى أنك كنت مخلصا ، استمر في البحث ، واصل ماكنت فيه حتى تجد ما تبحث عنه . كنت تعتقد أنك تبحث لحسابى ، ولكنك كنت تفعل من أجل نفسك ، هل أدركت ذلك ؟ » .

قال آنسلم : « اشتبهت فيه ، وأنا الآن أدركه ، إنها رحلة هائلة يا آيريس ، وكان من الممكن أن أرتد على أعقابى ، ولكننى لا أجد الآن مناصا من مواصلة الرحلة ، ولا أدرى ماذا سيكون مصيرى » . وحدقت في أعماق عينيه الحزبتين ، وابتسمت مشجعة ، فانحنى على راحتها النحيلة ، وبكى في صمت ، فابتلت يدها بدموعه .

قالت بصوت لم يكن يشبه إلا وهج الذاكرة : « ماذا سيكون مصيرك ؟ مصيرك هو شىء ينبغى ألا تسأل عنه . لقد سعيت إلى أشياء كثيرة في حياتك . سعيت إلى المجد والسعادة والمعرفة ، وسعيت إلى . . . أنا صغيرتك آيريس . لم يكن هذا كله سوى صور جميلة سرعان ما فارقتك ، كما يجب أن أفارقك الآن . وكان الأمر معى مثلما كان معك . كل ماسعيت إليه استحال إلى صور حبيبة عزيزة ، ذبلت وذوت دائما ، والآن ، لم يعد لدى مزيد من

الصور ، ولا أسعى إلى أكثر من ذلك ، إننى عائدة إلى الوطن ، ولم يبق لي غير خطوة صغيرة أخطوها لكى أصبح في موطنى الأصلي . وأنت أيضا يا أنسلم سوف تلحق بى هنالك ، وعندئذ لن ترتسم غضون جديدة على جبينك .

كانت شديدة الشحوب بحيث صاح أنسلم يائسا : « آه ! انتظرى يا آيريس ، لاتذهبى الآن . اتركى لى علامة على أنك لن تختفى تماما . »

فأومأت برأسها ، وتناولت إناء للزهور كان بجانبها ، وأعطته سوسنة حاملة السيف زرقاء فى تمام نضارتها وازدهارها : « إليك هذه . خذ زهرتى ، السوسنة ، ولاتنس ، ابحث عنى . ابحث عن السوسنة . وعندئذ سوف تأتى إلى . »

وأمسك أنسلم - باكيا - بالسوسنة بين يديه ، واستأذن فى الانصراف دون أن يكف عن البكاء . وعندما استدعاه صديقه برسالة . عاد وساعد فى تزيين تابوت آيريس بالأزهار ، وشارك فى إنزاله إلى الثرى .

وتناثرت حياته شظايا حواليه ، وبدا له من المحال أن يواصل غزل خيوطه ، فانصرف عن كل شىء ، وهجر وظيفته ومدينته ، واختفى من العالم . وكان يظهر لحظات قصيرة هنا أو هناك ، فكان يرى أحيانا فى مسقط رأسه منحنيا على سياج حديقة الزهور القديمة ، فإذا سأل الناس عنه وحاولوا مساعدته ، كان يختفى فلا يعثر له أحد على أثر .

وظلت السوسنة حاملة السيف عزيزة على نفسه ، وكلما وجد واحدة ، انحنى عليها واستغرق زمنا طويلا يتأمل كأسها ، ومن أعماقها الزرقاء كان يتصاعد إليه أريج وشعور بكل ماكان وماهو كائن ، حتى سار فى طريقه

حزينا ؛ لأنه لم يبلغ ما يريد ، كان حاله أشبه بمن يستمع عند باب موارد ، ووراء هذا الباب يتنفس أكثر الأسرار سحرا ، وفي اللحظة التي أحس فيها بأن كل شيء سوف يتضح ويتحقق ، أغلق الباب ، وهبت ريح العالم الباردة على وحدته .

وفي أحلامه ، كانت أمه تتحدث إليه ، ولم يكن قد رأى وجهها وهيئتها قريين هذا القرب وبهذا الوضوح منذ وقت طويل . وكذلك تحدثت إليه « آيريس » ، وعندما استيقظ كان ثمة صدى يتردد في أذنيه ، وقد كرس له يوما كاملا من التفكير . ولم يكن له مكان دائم للإقامة ، بل كان يذرع البلاد كلها كالغريب ، ينام في المنازل أو في الغابات ، ويأكل الخبز أو القوت ، ويشرب النبيذ أو الندى العالق على أوراق الآجام ، ولكنه كان ناسيا لهذا كله . وحسبه البعض مجنونا ، وظن آخرون أنه ساحر ، على حين خشيه البعض الآخر ، وضحك منه قوم آخرون ، وأحبه كثير من الناس . وقد اكتسب مهارات لم تكن له من قبل أبدا ، كأن يختلط بالأطفال ويشارك في ألعابهم الغريبة ، أو يجري أحاديث مع غصن مكسور أو حجر صغير . وكانت مواسم الشتاء والصيف تتسابق معه ، وظل ينظر داخل أقذاح الزهور ، ويتأمل الغدران والبحيرات .

كان يحدث نفسه أحيانا قائلا : « صور ! كل شيء لا يعدم أن يكون صورا »

ولكنه كان يشعر أن هناك ماهية داخل نفسه وليست صورة ، وهذا هو ما ظل يتابعه ، وهذه الماهية المستقرة في داخله كانت تتحدث أحيانا ، وكان صوتها هو صوت « آيريس » تارة ، وصوت أمه تارة أخرى ، وكان ذلك عزاء وأملا .

وصادفته عجائب كثيرة ، ولكنه لم يدهش لها . ومن أمثلة ذلك أنه كان يسير ذات يوم من أيام الشتاء خلال الجليد في حقل مكشوف ، والثلج يتراكم على لحيته ، وهناك خرجت من الجليد سُوَيْقَةً رشيقة مدببة من زهور السوسن لا تحمل سوى زهرة واحدة جميلة ، فانحنى عليها وابتسم ، فقد أدرك الآن ماكانت « آيريس » تدفعه إلى تذكره المرة بعد الأخرى . وتعرف هنا على حلم طفولته حين شاهد بين الشرذمة الذهبية ذلك المعبر الأزرق الفاتح الذى تتخلله عروق لامعة ويؤدى إلى قلب الزهرة المستسر ، وعلم أن هذا هو ما كان يبحث عنه ، وأن هذا هو الماهية وليس صورة من الصور .

وغادت إليه التوقعات مرة أخرى ، وكانت الأحلام تهديه ، وذات مرة وجد كوخا ، وهناك قدم الأطفال اللبن إليه ، وبينما كان يلعب معهم ، قصوا عليه حكايات ، وأخبروه أن معجزة وقعت فى الغابة بالقرب من أكواخ الفحامين . فهناك شاهد الناس بوابة الروح وقد فتحت على مصراعيها ، وهى البوابة التى لا تفتح إلا مرة واحدة كل ألف سنة . وأصغى إليهم « آنسلم » وأطرق رأسه متقبلا تلك الصورة العزيزة ، ومضى فى سبيله . وعلى أجمة من آجام الحور غنى أمامه طائر ، له نبرة غريبة عذبة شبيهة بصوت « آيريس » الراحلة . وتابع الطائر ببصره وهو يحلق ويحيط بعيدا عنه فى أعماق الغابة .

وعندما هبط الطائر صامتا واختفى ، توقف آنسلم ونظر حواليه . . . وجد نفسه واقفا فى واد عميق من وديان الغابة ، وكان الماء يجرى برفق تحت أوراق الشجر العريضة الخضراء ، وفيما عدا ذلك كان كل شيء صامتا ، وكأنه فى حالة توقع تام إلا أن الطائر واصل غناؤه فى قلب آنسلم بذلك الصوت الحبيب ، وظل يحثه على السير حتى وقف أمام صخرة كستها

الطحالب ، وفي وسطها كان ثمة باب مفتوح يفضى بواسطة ممرين إلى جوف الجبل .

وأمام هذه الفجوة كان يجلس رجل عجوز ، لم يلبث أن نهض حين أبصر أنسلم يقترب ، وصاح : « أنت هناك . ارجع ! بوابة الروح ! ومن دخل منها لا يرجع أبدا » .

ورفع أنسلم عينيه ، ونظر إلى المدخل الصخري ، وهناك شاهد ممرا أزرق ، يختفى متوغلا بعمق داخل الجبل ، وانتصبت أعمدة ذهبية متقاربة على الجانبين ، وكان الممر في الداخل ، ينحدر إلى أسفل كأنها تؤدي إلى كأس زهرة هائلة .

وفي صدر أنسلم انبعثت أغنية الطائر في وضوح وصفاء تام ، فخطا أنسلم متجاوزا الحارس ، واقتحم الفجوة ، وبين الأعمدة الذهبية سار متوغلا في السر الأزرق الكامن في الداخل كانت هذه « آيريس » التي ولج إلى قلبها ، وكانت هي السوسنة حاملة السيف في حديقة أمه التي خطا في رفق داخل قدها الأزرق .

وفي أثناء اقترابه في هدوء من الشفق الذهبي ، أصبحت الذاكرة كلها والمعرفة كلها فجأة طوع أمره ، وتحسس يده فوجدها صغيرة ناعمة ، وترددت أصوات الحب قريبة مألوفة لأذنيه ، وكان رنينها ، ووهج الأعمدة الذهبية شبيهين برنين كل شيء ووهجه في ذلك الزمان البعيد الذي شهد ربيع طفولته .

والحلم الذي زاره وهو صبي صغير أصبح ملكا له مرة أخرى ، حلم اقتحامه لكأس السوسنة ، ومن ورائه كان عالم الصور بأسره ينحط هو أيضا وينزل ويفغوص في السر الكامن وراء الصور جميعا .

وفي هدوء ، شرع أنسلم في الغناء ، وانحدر في رفق هابطا صوب موطنه .



في مدينة كالف
الألمانية وبجوار
السوق ولد

هيرمان هسه

هيرمان هسه في ثلثي أيام شهر يوليو عام ١٨٧٧ ، درس وتزوج في المدينة ذاتها حتى انتقل إلى المدينة السويسرية الشهيرة برن قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى التي فجرت أحداثها المفجعة طاقته الأدبية الإبداعية ، رغم أنه كان قد قرر عدم التفرغ للأدب والكتابة ؛ لأنها لا يقدران على مساندة شخص أو أسرة مساندة مادية فعالة بحيث لا بد للأديب أو الكاتب من البحث عن عمل أو مهنة ، معتبرا أن الأدب والكتابة هما مجرد هواية ، وقد شجع هيرمان هسه على اتخاذ هذه القرار واعتناق هذا النظرية ثراء أسرته وثراؤه بالتالي . .

لكن عقدة تأصلت في حياته أثرت فيما بعد على أدبه ، فقد كان يشعر بحرية تامة وحركة كاملة إلى أن تزوج ، ففرض عليه هذا الزواج قيودا والتزامات وعادات وتقاليد جعلته يشعر بفقدان الحرية ، وأنه أصبح يعطى أكثر مما يأخذ بعد أن كان يأخذ أكثر مما يعطى . .

هو - إذن - سويسرى من أصل ألماني ، ظهرت روايته الأولى في عام ١٩٠٥ بعنوان « كروجر » فأثارت انتباه القراء والنقاد جميعا بما فيها من تركيز على الأصالة الإنسانية ، وبما فيها من تجديد في التناول الذي يجمع بين الواقع والخيال ، وبما فيها من أسلوب شاعري ساحر وجميل ، وهى صفات ومواصفات ظلت لصيقة بهسه في رواياته التالية جميعا وفي قصصه القصيرة أيضا . ثم ظهرت رواية « بيتر » عام ١٩٠٩ لتؤكد شهرته ورسوخه في الحياة

الأدبية ، فقد أعلن النقاد أنهم ينتظرون من هسة الكثير ؛ لأنه يكتب بروح الهواية ، ولأنه لا ينتظر النشر والتوزيع والتقييم بقدر ما ينتظر استحسان النقاد وجمهور القراء . في هذه الرواية استمر هسة في مزج الواقع بالخيال مع اهتمام خاص بالطبيعة وبالحياة . وفي العام التالى أصدر هسة رواية بعنوان « جرتروود » وبعد ثلاثة أعوام أصدر رواية بعنوان « روشالت » . والروايتان تتماذيان في عالم الروحانيات حلما بالفردوس المفقود واللجنة الموعودة عن الموسيقى وعالم الموسيقى ، وهو العالم القادر على التحليق بمن يقترب منه عازفا أو مؤلفا أو مستمعا ومستمتعا . .

أما الرواية التى عبر فيها هسة عن عبثية الحرب وما تسببه من مأس بلا سبب وبدون مبرر ولا فوائد ولا نتائج ، فهى رواية « اميل سنكلير » التى ظهرت عم ١٩١٩ كإدانة قوية للحرب وصرخة مدوية فى وجه مشعلها . . ويلاحظ أن هسة كان يهتم حتى الآن بأن يضع لرواياته أسماء أبطاله أو شخصياته الرئيسية التى تدور حولها الأحداث أو التى تصنع من حولها الأحداث . .

ويصل هسة إلى ذروة المزج بين الواقع والخيال أو بين الإنسان والطبيعة فى روايته « هارتا » التى ظهرت عام ١٩٢٢ . .

ولأول مرة يستخدم هسة اسما لإحدى رواياته ، وهى « الذئاب » وإن كان يقصد فى الحقيقة إنسان هذا الزمان الذى أصبح حيوانا فى تصرفاته وسلوكه بعد فقد كل القيم الإنسانية . .

ويعود هسة إلى أسماء أبطاله فى روايته « جولد موند » التى ظهرت عام

١٩٣٠ لتمزج هذه المرة بين الرغبات الحسية والمشاعر العاطفية أو بين المادة والروح ، تجسيدا للفلسفات التى سادت بعد الحرب العالمية الأولى وقبل الحرب العالمية الثانية التى لاحت نذرها فى الأفق . .

أما الرواية التى عبر بها هسة عن الحرب العالمية الثانية مثلما عبرت روايته «سنكلير» عن الحرب العالمية الأولى فهى رواية « اللآلىء الزجاجية » التى ظهرت عام ١٩٤٥ والتى تعد أنضج رواياته جميعا . وقد استبدل فيها بالبطل الموسيقى أو المحب للموسيقى البطل الرياضى المحب للرياضة والذى يصطدم بالواقع ، فيهرب إلى الواقع ، سواء كان هو الخيال أو الحلم أو الأوهام ، وكأن هذه الرواية هى المعادل الموضوعى للحرب الشرسة المدمرة، اللامعقولة ،والتي أفرزت بعد ذلك أدب العبث أو اللامعقول . .

وقد كتب هيرمان هسة عددا من القصص القصيرة فى مراحل حياته الأدبية المختلفة ، فجاءت قصصا أقرب إلى الروايات القصيرة ؛ نظرا لطولها الزائد عن أحجام القصص القصيرة المتعارف عليها . وهى تتناول أيضا شخصيات خيالية تعيش أحلاما غريبة وتنتقل فى أماكن عجيبة .

وبعد أن أتم عامه الخامس والثمانين رحل هيرمان هسة بعد حوالى شهر ، فقد توفى فى التاسع من أغسطس عام ١٩٦٢ . .

ونصل إلى مجموعته القصصية المختارة خصيصا لهذه السلسلة والتى اخترناها عنواناً شاملا هو عنوان إحدى القصص وهو «أحلام الناي» . .

تضم المجموعة سبع قصص قصيرة طويلة تتراوح بين عشر صفحات وأربعين صفحة . .

تتناول القصة الأولى « أحلام الناي » موضوعا خياليا يصلح للصغار

والكبار ، فالبطل طفل صغير يتعامل مع الكبار من خلال نصائح والده العجوز ، وهو يحب النفخ فى الناي والتنقل فى الغابات والمروج والأنهار ، يلتقى بفتاة رائعة الجمال ، يغنى لها وتطعمه ، ولكنهما يفترقان وسط أزاهير العشب والجبال الخضراء . .

وتتناول القصة الثانية « الشاعر » شخصية الفتى المحب للشعر الذى يلقى أشعاره على ضفاف البحر الأصفر ، ويستمتع بمشاهدة ابتهاج الناس فى مهرجاناتهم الخاصة ، ومع هذا يترك مدينته وخطيبته لينطلق إلى آفاق أرحب من أجل تعلم الشعر . وبالفعل يلتقى برجل عجوز يقبع فى كوخه الكائن على شاطئ النهر ، فيعلمه أشعارا تجعله يمسح من ذاكرته كل الأشعار التى قرضاها من قبل ، كما تعلم منه العزف على العود والغناء . . يعود الفتى إلى مدينته وخطيبته وأسرته ، ولكنه لا يتحمل البقاء ؛ فإن نداء الشعر والحنين إلى الأستاذ يعجلان بعودته مرة أخرى إلى رحلته الخيالية التى لا يدرك كم من السنوات مرت عليه وهو إلى جوار الأستاذ الذى اختفى فجأة ؛ ليعود الفتى وقد أصبح شيخا دون أن يدرك . .

وتتناول القصة الثالثة « الممر الصعب » الطبيعة الخلابة بمناظرها البديعة وسط الشمس الساطعة وسلسلة الجبال العالية ، والجداول ، والأعشاب والسماء الزرقاء ، والوادي الخصيب ، والغدير الأسود ، والصخور الصلبة ، ووسط كل هذا ينتقل الفتى وبصحبه المرشد أو الدليل وهما يتقدمان نحو الممر الصعب فى رحلة استكشافية خيالية مليئة بالمخاطر والغرائب . .

وتتناول القصة الرابعة « أنباء عجيبة من نجم آخر » موضوعا خياليا آخر، فقد ضرب زلزال مروع المنطقة الجنوبية من الكوكب متسببا فى كارثة أدت إلى

موت الكثيرين من البشر ، وأطلقت النداءات تطلب المعونة من المقاطعات المجاورة ، وبالفعل وصلت الأطعمة والثياب والعربات والخيول والأخشاب والمواد ، أما نقص الزهور فهو الذى لم يعوض ؛ لعدم توافره فى المناطق المجاورة ، الأمر الذى يتطلب الذهاب بعيدا لجلب الزهور ، فهى ضرورية فى مراسم دفن الموتى وبغيرها يشعر الأحياء أن أمواتهم لم يلقوا التكريم الواجب . ويتم انتخاب أحد الفتيان الأقوياء الأذكىاء ؛ ليقوم برحلته متوجها إلى ملك البلاد طلبا للزهور ، وانطلق الفتى بجواده ، وشاهد طائرا ضخما تبادل معه الحوار ثم حمله إلى حيث يريد . وبعد طيران طويل حط الطائر على حافة غابة ، وأنزل الفتى مشيرا إليه حيث ينبغى أن يذهب ، ووعده بانتظاره بعد مقابلة الملك وإنهاء مهمته . وصل الفتى إلى مقر الملك ، ولكنه فوجئ بأن المقاطعة أصيبت بكارثة أشنع من كارثة الزلزال بسبب حرب عاتية راح ضحيتها الآلاف الذين يصعب جمع أشلائهم ، فأدرك أن مطلب الزهور فيه رفاية زائدة أمام الكارثة التى يلمسها بنفسه كما لمسها فى عيني الملك عندما سمح له بمقابلته ، وعاد الفتى إلى حافة الغابة ؛ ليجد الطائر فى انتظاره ، يحمله الطائر بالفعل ويعيده إلى المعبد الصغير القريب من مقاطعته ، وهناك يجد جواده عائدا تسبقه العربات والمركبات التى تحمل أجمل زهور الشمال التى وعده بها الملك مستجيبا إلى طلبه ، رغم الكارثة التى تعيشها البلاد وهى تعاني من ويلات الحرب . وتم بالفعل دفن الموتى وسط الزهور ، والفتى لا يستطيع أن يقرر : هل كان فى حلم أم أن الحقيقة هى التى عاشها بكل أحداثها الغريبة العجيبة فى كوكبه أو فى النجم الآخر ..

وتتناول القصة الخامسة « حلم مسلسل » حلما آخر أو حقيقة أخرى

أقرب إلى الخيال ، فالفتى لا يصدق ما يقال عن امرأة جميلة رقيقة ، تتهم بأنها خاطئة . فهو يلتقى بها ويحملها عبر الصخور ووسط الأمواج تحت الأمطار في مواجهة العاصفة بين الأشجار العتيقة ، يلتقى بها وأصداء السيمفونيات تصدح وموسيقا شوبرت تتعالى وتختفى فجأة ، ترحل أو لا ترحل وهو يقف عبر سلام صخرية كأنها يقبع خلف زجاج شفاف . ويتذكر الفتى أيام المدرسة والكتب المدرسية وحمام السباحة وأشعار شيللر ، وأخذ يردد لحن فولف لهذه الأشعار « ماذا تعرفين يا أعلى الأشجار المظلمة عن جمال الأزمنة القديمة ، أرض الوطن الممتدة عبر الجبال . . ما أبعدك عنا الآن ، ما أبعدك ! » .

وتتناول القصة السادسة « أغسطس » أو الطفل الذى ولد بعد رحيل أبيه تاركا الأم وحيدة لا يعطف عليها وهى فى وهنها سوى امرأة عجوز ورجل طيب . ونتيجة لرعايتهما لها تصورت أنها تعيش حلما وليس حقيقة . وشب الطفل متميزا بجمال رائع وجسم قوى ، وقد عمده الرجل الطيب كأب روحى له خاصة بعد وفاة أمة التى خافت على ابنها من دعوة التعميد التى صحت وهى أن يحبه الناس رجلا ونساء . وبالفعل أحبته امرأة عجوز ثرية ظلت تنفق عليه وعلى رحلاته العديدة ، ومع هذا لم يكتف بهذه السيدة بل كان يستجيب لكل امرأة تعرض عليه حبها وتبدى إعجابها بوسامته ، حتى الرجال كانوا يضعونه فى مكانة رفيعة ؛ نتيجة حبهم لشخصه ، وحاول فى إحدى رحلاته البحرية أن يغازل زوجة سفير شابة ، ولكنها رفضت أسلوبه وإصراره غير اللائق ، بعدها تبدل حظه ، وكف الناس عن حبهم له وإعجابهم به ، وهو ما كانت تخشى أمه منه قبل رحيلها ، أن يستغل الدعاء استغلالا سيئا فيقلب ضده . وأدى به الأمر إلى محاولة الانتحار لولا الرجل

الطبيب الذى أنقذه ، رغم أنه لم يعد يهتم به أو يقوم بزيارته ، ويمرض أغسطس ويروح فى غيبوبة دون أن يسأل عنه أحد إلا الرجل الطبيب . . .

وتتناول القصة السابعة والأخيرة « زهرة السوسن » حب الفتى الصغير لهذه الزهرة التى تدعى حاملة السيف ، وكان الفتى يستطيع أن يتحدث إلى الفراشات والحصى والحنافس والسحالى والطيور والنباتات ، ومع هذا كان محبا للقراءة فيها فى الاطلاع دءوبا فى دراسته ، سواء بالمدرسة أو بالجامعة . . . كما كان يقوم برحلات بحرية إلى بلاد بعيدة ظن هو نفسه أنه يحلم وأن أسفاره هذه ليست حقيقة ، وأصبح أستاذًا فى مادته يحترمه زملاؤه وتلاميذه على السواء . ومع هذا لم يكن يشعر أبدا بالسعادة ، فلم يستطع أن يستقر مع واحدة من اللاتى عرفهن فى حياته ، كان يريد أن يتزوج ، ووقع اختياره على فتاة تجاوزه ، ولكنها كانت مولعة بالزهور وليس بالرجال ، فترى الأستاذ وأصبح شاردا غريب الأطوار ، يتسكع فى الشوارع ، ويرتدى سترة رثة ويسرح أثناء إلقاء المحاضرات أمام التلاميذ الذين لاحظوا التغير الذى طرأ عليه . وعاش حياة الأحلام بعيدا عن الحقيقة . . .

من الملاحظ أن عناصر مشتركة تتكرر بإلحاح فى كل القصص مثل الطبيعة بكل مكوناتها ، والمساحات الشاسعة ، والفراغ اللانهائى ، والزهور والطيور والخيول والغابات ، والحدائق والبحار والأنهار . ومن العناصر المشتركة أيضا إحساس الشخصيات أنها تعيش الأحلام ، وأن هذه الأحلام تحتل بالواقع والحقيقة . . .

كما يلاحظ أسلوب هسة الشاعرى القريب تماما من الشعر ، ولا غرابة إذا عرفنا أنه بدأ شاعرا ، وأنه كتب أشعارا رقيقة عن موطنه الأصل قبل أن يشرع فى كتابة الرواية والقصة .



محمد حجي

ورسوم

